ساعات الكبرياء

ادوار الخراط

دار الآداب

ساعات الكبرياء

ادوار الخراط

ساعات الكبرياء

مجموعة قصص

دار الآداب ـ بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٠

تحت الجامع

ـ أمّه هاتي قرش. .

ـ يوه جاك قرش لما يقرشك، هو انتِ يا بتّ ما تشبعيش قروش؟ طب سدي سد. هو أنا قاعدة لك على بنك يا بت، وإلا على حنفية قروش؟ قال إيه قال قرش. . صباحي وليلاتي على الله قرش. هو انت يا بت ما تستكفيش نيلة قروش؟ إنت مش لسه واخده قرش امبارح من أبوك، وقرش اصطبحت بيه على وش الصبح؟

والبنت ثبتت عينيها بوجه أمها، يربطهما به سحر الكلمات القاسي. الكلمات اللاذعة تنثال عليها، لن تكف أبداً، تتقلب وتئز كأنما تخرج عن موقد الجاز وهو يفح في عتمة العصر التي توشك أن تطمس معالم الغرفة.

أمها تربعت أمام النار، تقلّب الطاسة بالملعقة الكبيرة الصدئة، ورائحة الباذنجان السخن سطعت في الهواء المحبوس. التفتت إليها أمها لفتة خاطفة تكويها بنظرة من العينين اللامعتين بألق أسود صلب. وهج النار ينعكس على الوجه الأسمر

المتهضم، النضر مع ذلك بسخونة متضرجة. والمدورة تحبك الرأس وتلف الشعر الأثيث.

انحنت البنت على عروستها النائمة وسط كومة مهوشة من الخِرَق، وأزاحت العلب الصفيح والنفايات اللامعة على أرض الشرفة الضيقة، تحت ألواح الخشب المائلة على الحارة.

ورفعت عروستها إليها، خرقة أخرى ملفوفة محزومة بشريط ناصل، تتدلدل منها ساقان خرعتان لا قوام لهما، وذراعان إحداهما أطول من الأخرى وأسندت بيدها الرأس المحبوك بمِزْقة من مدورة أمها، لم يبق فيها إلا بضعة أقراص دقيقة متلالئة من الترتر الأزرق. ما أجملها وما أرقها، تبتسم لها من عينين لا يعرف أحد غيرهما جمال نظرتها، وابتسامتها حلوة، وجسمها اللدن المفهاف طيّع في يديها بحاجة إلى الحنان الذي يدر به صدرها ويغرقه.

ضمتها وابتسمت لها ابتسامة حميمة، واستدارت بها إلى جنب فلا يعود في العالم سواهما، والحنو والرقة. تطويها إلى صدرها الضيق الناحل، وتربت شعرها الكثيف المسرح، أصابعها، هي وحدها، تعرف مسته الناعمة. ابتعد أزيز النار ونشيش الكلمات والزيت المغلي. ولم يبق الا الشرفة المزحومة.

وهي تلتصق بلحاف مطوي قديم نبتت عليه نتف ملبدة من القطن المصفر، واللحاف يرتفع كأنه سد طري يحلو الاختفاء وراءه.

لم تكـد تنعم بكنّ مخبئها، وتنحني عـلى عروستهـا حتى وخزتهـا فجأة شظيـة ناتئـة من السَبُت المدور، تـطل منه رؤوس البصـل والثـوم النـاشف التي ضربتهـا الشمس. ونـدت عنهـا صرخـة، مكتومة كـأنها ذنْب. وخطفت يـدها مكهـربةً بـالألم فاصـطدمت بـأعناق زجـاجات الخـزين المسدودة بـالخرق، تكثفت في قـاعها صبابات من مـاء الزهـر والخل والسـبرتو. وهي تمص إصبعهـا، كأن في فمها حساً بالـدم الذي انبثق منـه يومـاً عندمـا كشطتـه زجاجة مكسورة العنق، لولا أن حجزته أمهـا عندمـا ربطت لهـا إصبعها بخرقة صوف.

ونور العصر تُريقه عليها سماءٌ ضيقة جافة محصورة بين سطوح البيوت ومئذنة الجامع الضخم العتيق. والحر آخذ بالنفَس.

ـ ماجدة، يا بت يا ماجدة يا مدهولة على عينك، انت ما لك يا بت؟ باندة عليك بقى لي ساعة وانت مـا ترديش يـا بت؟ هو انت اتلجمت، اتلبشت خـلاص؟ أعمـل إيــه في البت دي يـا خـواتي؟ قومي عـلى حيلك يا مضروبـة في جنبك هـاتي لي غـطا الحلة.

هـذه الولـولة تـدق قلب البنت، تفاجئـه بضـوء سـاطـع من الـرعب، فتنهض مدفـوعة كـأنما بـرغمهـا انـتزعتهـا الصرخـات وبطحتها على أرض صلبة، وعيناها معلقتان بالوجه الندي بعرق السخونة الخفيف، والعينين المتألقتين بسعار جاد.

ـ اسم الله عليك وعلى أخـوك، طب قومي يـا ختي يا حبيبتي يالله، مش تفتّحي يا ضناي!

بادرت الكلمات الحانية تلحقها كأنما لتقيلها من عثرتها. كانت ذراعاها تضربان الهواء، خانتها ساقاهـا اللدنتان، في لهفتهـا على الجري إلى أمها، فاندفعت عتبة الشرفة تخبطها وتصدها.

لانت العينان الصخريتان وتسايل فيهما حنو تكسرت من فوقه القشرة الجامدة. وسال الدفء في قلب البنت كماء ساخن يحمل امامه السدود. وقامت تجري في أمان رحيب وهي تدعك جنبها. ولم تبك.

وعندما عادت إلى جنب اللحاف أسندت ظهرها إلى نعومته الدسمة. هذا الجانب العالي منه يؤويها الآن، دون لهفة ودون خوف. وقد عاد إلى الغرفة صمت خلا من الطنين، وهمدت الرائحة الكثيفة.

أخذت عروستها على مهل في حضنها. خداهما الآن متلامسان. وهما تنظران معاً إلى دكان العجلاتي المفتوح جنب باب الجامع الكبير.

تغيبان معاً في نشوة من تأمل العجلات السوداء مرصوصةً حتى السقف، وكأن أيديهما تتحسس معاً نعومة الدراجات المقلوبة المعلقة على الجدار، في قاع الدكان، مصقولةً فضيةً تومض في العتمة. تنبثق الأسلاك من بؤرتها، في أشعة هفهافة، مندفعة ومشدودة، محبوسة في توتر دائري لا تشبع منه العين.

وفي الخارج جدران الجامع الضخمة قائمة بأحجارها الكبيرة العتيقة، انبرت القشرة عن مربعات الحجر هنا وهناك وتعرى لحمها الحلبي الأبيض منوراً في السواد الذي تركته أجيال طويلة من التراب ومس الأيادي.

وهي تناغي العروسة، في كلماتها نبرة من صوت أمها ـ أمها الأخرى الحلوة:

ـ عايزه قرش يا حبيبتي؟ خدي يا ضناي، خدي آدي قرش. حتشتري بي إيه؟ كراملة.. وحمص.. ومصاصة.. وبسكوت كمان، تقرقشيه لوحدك وما تديش منه لحد.. إنت عايزه تنزلي في الحارة دلوقتي؟ طب انزلي يا ختي.. خلي بالك من السكة.. مسافة السكة وتيجي على طول.

في همس حميم، والعروسة تصغى وتبتسم، وجهها المصنوع من الخرق منور وضاح، وتسلم نفسها للحضن الرقيق.

ـ أمَّه عايزه قرش، أمه هاتي.. هاتي قرش..

في ضراعة وخفوت وتردد، ولكن بثقة أيضاً، في دل من يعرف أن اللحظة حانت والقطاف دنا، وفي مكر.

ـ يوه هو انت يا بت الليل عليك اسمه قرش، خلاص علّقت،، طيب يا قرشانه انت، طيب. روحي ياللا.. قدامك على رخامة البورية فيه قرش أهه تحت المفرش. أهه يا بت. خديه يا ختي وانجرّي على تحت أمال.. ما انا عارفة. بس أوعي تعوّقي.. خلي بالك من السكة.

عيناها تتبعان البنت، ثم تنهض، خفيفة، وتستند بيدها إلى الأرض، ومس الحصيرة الخشنة المشبكة تحت أصابعها يثب إلى راحة الكف ويصطدم بها يدعم وقفتها إذ تستطيل على بنيان قدها الطويل، على عمودي ساقيها العضِلتين ينسدل عليهما، من هيكل جسمها الوثيق الملفوف، ثوبٌ صيفي من «رمش العين» يتخايل تحته قميص فستقي خشن النسيج ولكن محبوك، قصير، إلى سماني الفخذين.

وهي ترفع الحَلّة المغطاة، بيد، والموقد المطفأ في اليد الأخرى ما زالت بطنه ساخنة بعد، وعدته السوداء منداة بالجاز اللاذع الرائحة، وتوازِنُ بينهما في سهولة جاءت عن مرانة طويلة. عيناها في المحجرين الأسمرين الداكنين تتبعان البنت تتدأدأ في مشيتها وتهتز على عظامها الرقيقة إذ تجري إلى باب الغرفة، ومنها إلى الطرقة، ثم إلى السلم الضيق المعتم المكتوم.

في قلبها موجة خفيفة الاهتزاز من الحنان نحو هذه الحتة الصغيرة من أحشائها. هذه الجزازة الحية منها. وحدها الآن، مستقلة بحياتها الخاصة وإن كانت من كبدها ورحمها. ثم هي صورة غريبة أخرى من أبيها. فُولة وانقسمت فلقتين. الفم الواسع المدرب الحساس، والسِّنتان الناتئتان...

شفتاها تعرفان ضغط هاتين السِّنتين الناتئتين.

وابتسامة ترف حول ركني فمها. شفتاها تتلامسان، كأنما هي تستطعم الدم الذي انبثق منها مرة، في الليل، قبل أن تولد

ماجدة. الليالي القديمة العاصفة المتقلبة بالهوس الساطع في الظلام، حتى يهمد بهما عباب الأمواج المتراكبة المليئة، ويصلان إلى المرسى.

جاءتها من الباب المفتوح ضجة الجيران في الطرقة، والزعيق، والنداءات، والدعوات على الأولاد مقصوفي الرقبة هو انت مش حتهمد يا واد بقى؟ هو أنت معجون بميّة العفاريت.. إلهي ياخدني ويريحني منك يا محمد يا ابن نفيسة.

وحنفيات مفتوحة وعمود كثيف من الماء ينصب ويصطدم بجدار سطل من الصفيح، ويثال الماء ويتسبسب من على جوانبه، والخيشة تدفع السيل على بلاط الطرقة إلى السلم. هذه نفيسة أم محمد تكد في الكنس والمسح والطبيخ والتسوية والغسيل طول النهار، وسلفتها نجيبة متربعة جنب الراديو أمام الشباك طول النهار تسمع الأغاني المائعة - المقروصة في جنبها - وتلعب بعقول الشبان في الحارة من وراء ظهر زوجها. عقربة ومستخبية يا خواتي. ويتخرب على الناس من تحت لتحت.

كان يقرض قلبها دائماً شكٌ، لا يستند إلى أدنى أساس، في أن مقصوفة الرقبة تلعب لزوجها أيضاً بالعين والحاجب، ولا تراعي حق الجيرة والعشرة. هو حدس لا قوام له في الحقيقة التي تظهر للعيون، لكنه حدس لم يخنها قط.

وأم محمد تهتف فجأة مرتاعة:

- يوه بسم الله الرحمن الرحيم حاسبي يا بت يا ماجدة لتتزحلقي.

وباب السلم يصطفق.

تدوي الخبطة فيرتج لها قلبها، وفي طرف من أطراف هذا القلب المرضوض خشية من أن تستيقظ ماجدة مفزعة من حلاوة نومها في أول الصبح. الرجل يترك لها دنياها، وحدها مع البنت، ويمضي متوترا بالغضب. والسترة الجلدية الداكنة تلف الظهر الوطيد وتحيط بالكوفية المعلقة حول العنق الركين.. أرض الطرقة تهتز تحت الخطوات القوية بالسخط والشباب والاستهتار. وكل يوم يصبح على هذا الحال، ولا يعود إلا في آخر الليل، عيناه محمرتان، والرائحة نفسها ليلة بعد ليلة، تتشبث بملابسه بل بعضلات صدره وذراعيه أيضاً، وتحت الأبطين وفي خفايا أركان الجسم. رائحة فيها حلاوة خافتة تكاد تنقلب لها المعدة تفوح من الفم بشفتيه الساخرتين المنفرجتين دائماً عن الأسنان الحارة. وإذ يعود في النهاية يقر لها قلبها مع ذلك ويرتاح من خوفه ويضطرب أيضاً بالغيظ والحنق.

- هي الفلوس اللي بتروح على المدعوق ده مش فلوس؟ طب أعمل إيه بس لو مسكوه؟ أبقى ساعتها أروح فين وآجي منين يا خواتي؟ يا ختي.. الشر بره وبعيد. والعيّله دي أبقى أعمل بيها إيه؟ يعني آخرتها يسيبها في آرابيزي يبقى يا فرحتي يا هناي...!

تسرب ما ادخرته من أيام الشغل وشقاء الشغل. سحب منها القرشين بخلابة كلامه وسحر أصابعه. وما زال يطلب منها

المـزيد. كـأنما لا تكفيهـا وزيـادة بـالـوعـة البيت التي لا تشبـع، ومصاريف الطفح الأكل التي تقصم الظهر. وهو كل يـوم سبت لا يكـاد يرمي لهـا ما يلم أطـراف البيت عـلى بعضهـا البعض. وهـاتي هاتي بـا بت الكلب. . حتى الصيغـة بـاعهـا من زمـان، وحججه لا تنتهي، وضيّعها على المحروق الـذي لا ينتهي ظمأه إليه.

ومـا زال في ظنـه أنها تخبيء عنـه بقيـة، ومـا زال يـداجيهـا ويناغيها مرة ويعنف بها ويعصف مرة. يطاوعها ويلاينها أو يتنكر لها ويسب الدين والملة، يجهـد أن يستقطر منهـا الصبابـة الأخيرة بالمحايلة أو الخطف على السواء. كانت قد أفرغت مـا لديهـا بين يديه منذ أمد طـويل، ولكنهـا تتركـه عن عمد يستشف من نـبرة صوتها أحياناً، أو من كلمة نافرة كأنها أفلتت عفواً، أنها ما زالت تكتنـز شيئاً في حـرز حريـز، وإن كانت لن تسلمـه كنزهـا. فلو تيقن أنها صفر اليدين حقاً. .

هـل هي خدعـة تلك التي تقيها هي وبنتهـا، وتحمي بيتهـا؟ أليس لديها في الحقيقة كنز آخر، وهي تحجبه وتحرس بابه؟

لكن يديه الخشنتين وأصابعه القويـة الدقيقـة المفاصـل تعرف أسرار مـا تعالجـه في أحشاء السيـارات طيلة النهار، تجـوس فيها وتجسهـا وتظل تتحسس جـوانبها ومسـاراتها ومسـاكنهـا، وتـلائم بين أطـرافهـا وتـدق عـلى جـدرانها وتلحم المتفـرق من شعثهـا وحديدها، كأنها تعمـل لها «عمـلاً» أو تتلو عليها رقيـة حتى تهتز

بالحياة وينبثق الطنين في المعدن الموات وينبعث لـه هريـر وهديـر دفيء منتـظم الإيقـاع . . يـداه لن تـطولا كنـزه الآخـر، يـداه مضمـومتان عميـاوان. والكنز تحت يـديه. يـداه لا تعرفـان بـابـاً إليه.

ـ وهو فيه عينين تشوف غير الزفت اللي بيحرق في قلبـه عمال على بطال ليلاتي على الله، آهي وكسة من كل ناحية وخلاص.

لكن ثم جانباً رخياً موطـأ الجناح في دخيلة نفسهـا، فيه رضى وأمن ونعمة. هنالك في ركن منها، صحيح، توق غامض وأمنية خفية، لو خلف الله عليها بولد، وخيبة صغيرة لأن ما جـاءت به بطنها بنت مكسورة الجناح. لكنها بنتها وحبيبتها وأغلى من الدنيا عليهـا. ولسـانها مـع ذلـك يلهـج بميلة البخت. . كـأنها تصـد العين، كأنها تعويذة تقولها بطرف اللسان حتى تداري قوة شريرة تتـربص بها بآذان متشوفة تتسمع وترهف السمـع، تنتظر لحـظة الانقضاض لتخطف ما بقي في يديها.

وأحست ما ينخسها في قلبها، شكة ثاقبة من خـوف أسرعت بهـا إلى الشرفة المـزحومـة المتراكبـة، تتخطى السـلال والمواعـين والقفف لترشق الحارة بنظرة عجلى ملهوجة.

كانت الصغيرة قد خطفت السلالم المتربة الموحلة بمـاء الغسيل وتخـطت العتبة الحجـرية القـديمة التي تـآكلت ونعمت أطـرافهـا وانغرز جانبها في تراب الحارة.

ودلفت تجري، مستوفزة فرحة بقرشها، كنزهـا الصغير يـدهـا

تعرق عليه منذ الآن، من الفرحة والتشوف. ونفـذت من جنب لوحة العيش على حافة الرصيف الضيق، وانفلتت من بين قفف العلاف المرصوصة، في عتمة العصر، بأكـوام ملونة من العـدس الأصفر والرز والبرغل والذرة.

وهي تشب الآن أمـام دكـان السجـايـر، تـطاول الـواجهـة الزجاجية المتربة وترفع يدها بالقـرش. تعلقت عيناهـا بالمسرجة الصغـيرة الموقـدة أبداً بلهب ضئيـل احتـاط عليـه غـلاف علبـة «بلمونت» حمشت النار أطرافه فاسودت، تنبعث له رائحة شيـاط خفيف مستمر.

تسحرها دائماً هذه الشعلة الضيقة المدخنة التي لا تنطفىء ليل نهار.

- أيوه يا شـاطـره سـاكتـة ليـه؟ عـاوزه إيـه يـا ست الحسن والجمال إنتِ؟

كان قد اختطف منها القرش قبل أن تتكلم، فأفزعتهـا فُجَاءَةُ حركته وضراوتُها وخشيتُه أن ترجع عن عزمها.

- مصاصة..

- عينيٌ حاضر..

وهو يدفع بيديه وسط أكوام الثروات اللامعة في الورق الناعم الملون، والأواني الزجاجية التي تحتشد فيها كل الأشيـاء الحلوة في العالم. وقد تحيرت البنت وتلدد قلبها من الـرغبة في أن تضم إلى صدرها كل هذا، حفنات حفنات. وغشيتها الأزمة التي تعتورها

في كل مرة تأتي إلى باب هذا الكنز ثم ترتد عنه وليس في يدها إلا نتفة صغيرة من أطرافه لا تتحيف منه شيئاً كأنما لم تمسسه قط ولم تقف ببابه. سرعان ما تنجاب عنها الغاشية إذ ترجع إلى الحارة ومعها ما اقتنصته لنفسها، فإذا هو العالم كله، حلو الآن كطعم المصاصة التي يتحلب سكّرها في فمها المضموم. أبطأت خطواتها أمام دكان العلّاف وظهرها الجاف النحيل يحتك بالقفف اللينة وما فيها من أكوام مطواعة هينة الجوانب. وعيناها تجولان على راحة وفي مهل وباستمتاع بين المشاهد الدسمة المليئة حواليها. على مهل، فليس هناك ما يعجلها. شفتاها مزمومتان تحتاطان بالجسم المدور الأملس الذي يشر بالحلاوة في جوانب فمها، عيناها مشدودتان مزويتان من المص والمتعة، تلفان في تؤدة وفي غير توتر، بين جنباتّ عالم لدن طري، على دكاكين العجلاتي والزيّات وبيّاع الفول والموقد المشتعل يفح في الشارع أمام باب النجّار عليه كوز الغراء تفوح منه رائحة الصمغ الثقيل والتراب وعطر السكّر الرخيص وشوب النار.

ارتفعت عيناها إلى المئذنة الضخمة الشاهقة، والنقوش البارزة عليها متربة عتيقة ولكن راسخة يتحدد بها نسيج السماء الأزرق الصافي الذي خلا من سطوع النهار، وبقيت فيه وضاءة عميقة، وشرفات المئذنة تعلو متدرجة بأضلاعها الرشيقة تلوح كأنها مركبة على السماء لا انفصال بينهما.

وهي في الشارع المزدحم، مسنودة إلى الحائط الحجري القديم، وقد نسيت كل شيء إلا هذه اللذة الهادئة الآن بعد

عنفها الأول تقطر حلاوة بطيئة في فمها، وقدمها الحافية تفحص التراب الهين على صخر الرصيف. ثم دفء نهار انقضى يتسلل من حجر الحائط إلى عظام ظهرها الهشة من وراء الفستان القديم. وعيناها سارحتان متعلقتان بالمئذنة وفي حسها حضور غامض لأبيها، فارعاً طوالاً راسخ القامة عالياً.

بالأمس أعطاها قرشاً اشترت به «كراملة». بالأمس استيقظت في الليل في عالم مضطرب مهتز وأحست كيانه القوي المتين جنبها، بينها وبين أمها على سريرهم الحديدي الوحيد. وفي نوم ليس كاملاً، بحركة كأنها الحلم، ابتعدت عن الحائط والتصقت بالظهر الشاهق ورمت بذراعها الواهية على الهيكل المتمكن في نومته يملأ دنيا حلمها تتردد فيه أنفاس منتظمة. وعادت إلى نوم مريح وقد سكن قلبها تبتسم من الأمان.

رأت من باب الجامع شيوخاً يروحون ويجيئون في الطرقة المبلطة النظيفة يتحركون ببطء كأنهم في النوم أيضاً، رؤوسهم عارية يلبسون قباقيب وجلاليب بيضاء في العتمة الخفيفة، ويأخذون الماء، في كوز مندى، من الزير المدور المركون جنب الباب.. «الله.. أكبر.. الله أكبر» المئذنة ينزل منها صوت بعيد يشدو بدعاء طويل كأنما لا أمل فيه وفيه نشوة بالشكاة وراحة إليها ومعرفة خفية.. وزحمة المغرب في الشارع الضيق، أخذت تلمع فيها أنوار مضطربة وضجيج مختلط من صلصلة أجراس العجلات وغناء البياعين وصيحات بائعي الزبادي البيتي وتنغيمات الشحاذ وهو يقطع الشارع من وسطه كأنما الدنيا كلها

ملك يديه، وفي يده ولد يردد بنغمة رفيعة ملحنة «عليك يا رب.. عشانا عليك يا رب.. الأجر والثواب عند الله يا محسنين».

والضجيج البعيد المضطرب يجعل الغرفة الضيقة تموج بالخوف والوحشة، حيطانها تتباعد وتنفتح بينها مسافات لا آخر لها. صيحات أبيها الغاضبة تأتيها من آخر الحلم، ودعاء الشحاذ وترديد الولد «عند الله يا محسنين». نحن في المغرب أو في الفجر؟ نداء لا ينتهي يجيء من وراء خصاص الشباك «يا.. غورت.. الله أكبر.. يا... يا محسنين.. أكبر» فتدفن رأسها في المخدة وتحس السرير يرتعش ويصطك تحتها وتغمض عينيها، تزيد من إغماض عينيها عن عمد، بشدة، كأنما بذلك تحجز نفسها عن السمع. وأمها تحبس البكاء في ركن بعيد من الأبعاد التي لا آخر لها. وهي تغوص في الليل المليء بالظلال والأصداء المتحركة القلقة.

وتفتح عينيها في العتمة، على اهتزاز السرير، ويتجمد جسمها على الفور ويتوتر. إنها ميتة. وتسمع في الظلام وفي موتها وشوشة وهمساً حاراً وأصواتاً فيها لذة كأن أحداً يستقطر بين شفتيه حلاوة مصاصة. هي ميتة، ميتة. وتضغط على عينيها حتى لا تنفتحا، فإن الميتين يكونون مغمضي العيون لا يتحركون أبداً متخشبين. وخشب السرير يهتز على أمواج رتيبة. وفي موتها المضطرب المغلق العينين تسمع شكوى طويلة «الله ـ أكبر... الله.. أكبر». هل يجدونها في الصبح ميتة؟ وتولول أمها وتدق

خدودها وتملأ الدنيا بالصريخ؟ سيجدونها ميتة في الصباح. والشيوخ البيض الجلاليب سيصبون الماء الدافىء من الزير على جسمها العاري، بالكوز. ماء ساخناً على جسمها العاري الممدد على البلاط في طرقة الجامع، والهواء تحسه بارداً على جلدها المكشوف، يهب عليها من الباب.

ـ مادا.. بت يا مادا.. مصاصة أنا تمان.. عاوز مصاصة.

التفتت إلى الشيء الصغير الذي يتوثب جنبها ويشد يدها المرفوعة إلى فمها بالمصاصة. وعلى وجهه الملطخ بالتراب خيوط نظيفة من دموع ما زالت تتقطر من غير صوت.

ـ يوه ما لك يا ولد يا محمد؟

ـ نديّة، خالتي نديّة ضربتني..

يحكي عن حدث مضى، بسبيله إلى الاختفاء منذ الآن.

تأملته في غير عطف، دون قرابة.

دائماً تضربه نجيّة زوجة خاله وتطرده لأنه يلعب في الراديو وينحشر في الشباك، ويعطّل عليها. وتنقلب الدنيا بينها وبين أمه نفيسة، وتثور عركة ترتفع لرب السماء. لكن الدموع تتسلسل من عينيه دون بكاء وما زال يشهق بانتظام.

ألقت ماجدة بذراعها على كتفه الصغيرة الواطئة تحس نفسها قوية عالية. وتحسه يحتمي بها، عظامه الرقيقة في الجلباب الفضفاض تهتز ما زالت من شهيق البكاء، يستند إليها كأنه من خرق طرية لا تعرف الرفض.

وهو يتطلع إلى ما في يديها من حلاوة تعوضه عن غضبة العالم وضجيجه.

وانفتح في نفسها عمود مندفع من ماء الحنان يفيض على الوجه الذي يرتفع إليها وضيئاً بالثقة.

فأعطته المصاصة منداة بعد من ريقها كما تعطيه جزءاً من نفسها.

وتململ الولد تحت ذراعيها وتفلّت منها واستدار عنها قليلاً، وقد استغرقه مص الحلوى التي كادت تنبري وتنسل من خشبتها الرفيعة. شفتاه لهما حياتهما الخاصة ولغتهما الخاصة من التلمظ والتذوق الجشع مزمومتين رقيقتين متحركتين. شفتين مدربتين حديث عهدهما بالثدي الذي ينز بأمل قليل وعذوبة عصية على الإستنباط. ولاح لها أن وراء هاتين الشفتين ثمّ سنتين ناتئتين تضغطان من الداخل على جانب اللحم الحي الذي يستقطر السكّر ويرتعش باللذة.

ـ يا ما.. جدة.. يا بتّ يا ماجدة يا بتّ.. هي البنت انخسفت فين يا خواتي؟ هو أنت اتربطتِ خلاص يابتٍ أنتِ في الحارة؟ يا بتّ يا ما.. جدة.

وجه أمها مطلّ عليها من الشرفة الضيقة الملتصقة بالحائط، مدورتها محبوكة على رأسها، اللهفة والخوف يتنازعان قسمات الوجه الأسمر المضيء في قتامة المغرب، حزيانة من وجهها المكشوف في الحارة وصوتها على ذلك يتمدد ملء المغرب بدفء

أنثوي كثيف لا تمتلىء به إلا أصوات الأمهات الشبعانة بالأمومة.

ثم إذا هي فجأة وحيدة.

الحائط الذي كانت تستند إليه بعيد عنها، وما حولها فراغ.

وأدركت دفعة واحدة، أحست لحظة واحدة قبل أن ترى بعينيها، أن الولد قد ذهب، أنه تسلل من جانبها، أن ذراعها لم تعد ترتكز على هيكله المشدود، أنه لم يعد محتاجاً إليها. إن أحداً لم يعد محتاجاً إليها.

ثم التقطته عيناها، دون بحث، كأنما كانتا تعرفان لوحدهما الاتجاه الذي انسل فيه الولد دون أن ترياه يجري بخطواته القصيرة المتلاحقة وسط الحارة بين زحمة الناس المتدافعين، وجلبابه الأبيض الطويل تتعثر فيه قدماه الحافيتان المتداخلتان وهو يتخايل مبتعداً بين العتمة والأنوار.

تحجرت رجلاها في وقفتها، لم يخطر لها أن تجري وراءه.. وباستطاعتها أن تلحقه في لحظات. كأنما أنستها الخيانة مقدرتها على الحركة وأحالتها عموداً من الملح.

ولأول مرة أحست يدها صفراً خاوية وفي صدرها فراغ هابط الغور ليس له قاع. كأن الرضة التي صدمت قلبها شلته أيضاً. وقد جف ريقها، وفي فمها طعم الخشب. الضجيج حولها يبتعد بسرعة ويهبط إلى طنين يأتي خلال طبقات مسدودة ثقيلة من تحت الأرض. وبيوت الشارع تسقط مرة واحدة والمئذنة العالية تميل إلى الوراء مع كتلة حائط الجامع كله، الجدران والدكاكين

والأبواب الصامتة تفترق وتهرب منها. وحدها، هي وحدها. عيناها جافتان مشدودتان إلى النقطة البيضاء التي تجري هاربة منها في الزحمة تحمل شيئاً لا عوض عنه.

وأمها مائلة إلى حاجز الشرفة، قلبها مشدود من هذه الصدمة الصغيرة المضحكة التي أصابت البنت. خطف الولد منها مصاصتها وجرى. مضحكة هذه الحكاية. لكنها تعرف أن هذه القطعة الصغيرة من نفسها، واقفة هناك بجمود في الشارع، إنما ترتعش الآن بما ينبض به قلب واحد ممدود داخل الأجيال جميعاً وعبر الناس جميعاً أطرافه مشدودة حتى آخر فتائلها، مغروز على مسامير، مفتوح في الهواء، ترتعد شرايينه العارية الرقيقة بالدم السخن تخبطه صدمات لا تنتهي، ويظل يرجف حياً.

وهي تستند بكوعها إلى الحاجز الخشبي، والشباك إلى جوارها فيه تلك المرأة جنب الراديو الذي ينصب منه غناء طويل رخيص البكاء.

نسيت خجلها وأنه عيب أن تظل مكشوفة الوجه في الحارة، واعتمدت خدها بيدها وعيناها هي أيضاً معلقتان بالولد الصغير الذي هرب منها، أخذ المذاق الحلو من فمها وجرى. كان قد تسلل يستشرف النظر إليها ويشد يدها. وابتذلت له قلبها واحتاطت عليه بذراعيها وحضنها ترعى ناراً صغيرة تشتعل في عينيه الضيقتين، تحترق بها أطراف نفسها. وعطيتها له متعة لها مع ذلك وسعادة. لكنها الآن يتدافع بها الناس في الزحمة.

يداها لن تنضما عليه قط. ذراعاها لن تلتحما أبداً حول أركان جذعه العضِل الشامخ. بل تقصران عنه وتسقطان إلى جنبها. رجولته وعقوقه واستغناؤه تهزم امتدادها إليه.

وهي تنهدّ وتسقط في الداخل. صلابة الأرض تتلقاها وقد غاضت من جسمها كل عصارة. الحصيرة ترتفع إلى لحمها فتصده بخشونتها وتوقف انهياره بثباتها الذي لا يرتج. والظلمة في الحجرة الخاوية تنبثق فيها ظلال قوية من أعمدة السرير الحديدي في أركانها الشاهقة تسد السقف الذي يتصاعد ويبتعد، إلى أعلى في الظلام، وما زال يبتعد، في سماء قاتمة ترتفع بسرعة، وحواليها أثاث حياتها الرث، وآنية حبها وحبوطها مائلة على جنبها مثنية الأطراف. تحتاج إليه. تحتاج إليه. هي تحتاج إليه.

لكن البنت الصغيرة لا تحتاج إلى أحد ولا إلى شيء. وجهها الصبياني فيه كبرياؤه. وهي واقفة في الشارع، بعيدة. سوف تعود لأمها بعد قليل وسوف تجد عروستها. وأبوها سوف يرجع آخر الليل، ويعطيها في الصباح قرشاً، وعملة صغيرة أخرى من الحب، لكنها ليست بحاجة إلى شيء. وهي عندما تنظر إلى آخر الشارع ليس في وجهها نضوج، ليست فيه خبرة وليست فيه حتى نعمة النضارة ونعومة الطفولة. ولكنه ليس متوتراً بل فيه فراغ، شاحب قليلاً أبيض في العتمة، تحت شعرها الأسود الكثيف المسرّح. وجه أمسح، خاو، جامد ليس فيه دموع.

آخر السكة

حِسّ الرمل تحت قدميه، هش، طري، به بلل من المطر الذي ظل يسح هيناً طوال بعد الظهر. وإلى جانبه يرتفع سد من الأحجار البيضاء الضخمة، تلوح رمادية مفتتة السطح، من ورائها أغصان أثيثة داكنة. وقطرات ثقيلة من الماء تسقط، من الشجر المتكاثف المشبع بالرطوبة، على الحجر، وعلى رمل الطريق الضيقة، لها وزن أصم يتبدد بصمت، في عتمة المساء، لا يخفف منه هواء البحر الذي يكتسح البيوت في هبات مفاجئة، به طعم الملح. وهو يرفع ياقة معطفه الجبردين على مؤخرة عنقه، يحس تحت شعره دسامة العرق القديم وندى البلولة الجديد، يحتمي من هجمة الهواء، وسقطات القطرات المشبعة من على الأوراق المعتمة الخضرة.

والطريق تنحدر بسرعة. وتنفجر خبطة مصراع نافذة على حائط، في السكون، بفرقعة. فيرفع عينيه إلى أنوار خافتة تتخايل وراء الزجاج المغبش في النوافذ الصغيرة العالية وتكشف عن متاع الحياة اليومية الرث في الغرف المكظوظة الموحشة بمقدم الليل. داير السرير الدانتلا الأبيض الكابي، على قضبان حديدية

سوداء رقيقة معوجة، صور باهتة من مجلات، مثبتة على بياض الحيطان، مصباح عريان عشرين شمعة مدلى من السقف بسلك رفيع ساقط باستسلام، دواليب مائلة مثقلة بالحقائب والكراكيب.

وحركة جسمه المنحني إلى الإمام تتزايد قوة واندفاعاً بانحدار الطريق إلى سلالم المحطة، وكأنما استراح من مضضه باقتراب أنوار كوخ المحطة الخشبي، يحيط به أفريزه المشبك على نسق أرابيسك مبسط، يشع النور من خرومه الهندسية. وهو يراه من فوق. والقرميد الطوبي اللون يلمع من البلل وتتعلق بأطرافه دانتلا أخرى ثقيلة من قطرات ماء تتشبث بحافته لا تريد السقوط، بعناد واهن ولكن لا ينهزم.

وهو ينحدر على السلالم العريضة، المغطاة بالرمل، إلى رصيف المحطة، أخيراً. والقهوة القريبة على الرصيف مغلقة الزجاج، دافئة من الداخل، كثيفة ببخار الأنفاس والدخان. وخطوط الترام تمتد سوداء، متألقة بقوة خاصة فيها، بطاقة كامنة نائمة ولكن متحفزة، تنتظر العجلات المدوية المفرقعة لتنبثق منها دفعات الانطلاق إلى عالم آخر جياش، مزدحم، مفتوح ومنير.

تأخر الترام.

وليس على الرصيف أحد غيره في هذه المحطة التي تشتعل أنوارها له وحده، وقد أوى إلى الركن الخشبي الذي تفوح منه رائحة عطن قديم ابتعثته الرطوبة وهواء الليل. وجفاف

الـرصيف الصلب تحت سقف المحطة يـرضي حس قـدميـه تحت جلد الحـذاء المبلل. وليس في الجو بـرودة، بل شتـويـة أكتـوبـر ونعومة سماء المساء المبكـر، العذري، مـا زال منيراً بـوهج محمـرّ توشيه دكنة السحب الجهمة المقطعة التي يجري بها الهـواء سريعاً صامتاً في مدار آخر. ونجمة وحيدة مشعـة تجري مـع السحب، تبدو وتختفي، تنسرب في بهجة حميمة مغلق عليها.

وأخيراً جاءت القرقعة البعيدة التي تؤذن بمقدم الترام، يقترب بسرعة مليئاً بشحنة مكتومة، والنور البنفسجي الكابي في مقدمته يتـألق ويكبر، والكتلة العلويـة الضخمة فـوقه كـأنها آتيـة قبله، مطلة من فوق، مسدودة، تنذر بتهـديد غـير مبرر، والأنـوار من نوافذه تتحرك على جانبيه بسرعة على رمل السكة، وتتعاقب على جانبي الطريق المتحدرين تحت حيطان البيوت وأشجارها.

واقترب الترام، بضجيجه ونوره، في أول المسـاء، بما يحمـل من وعد متفجر. لكنه لم يتحرك، كأن إرادة أخرى تفـرض عليه وقفته الجامدة في المحطة. وغض الترام من اندفاعه، وعـبرت به قامة السائق وهو يدير عجلتـه فيوقف القـرقعة ويحيلهـا إلى دقات معدنية تصلصـل وتتتابـع في بطء، ثم إلى هديـر أخير، ونشيش يهبط إلى زفـير نهائي مـرتـاح، وينفثىء إلى صـدمـة الانقـطاع، والتـوقف الكامـل، وسكتة لحـظة الصمت. والهدوء تنبعث فيـه فجأة أصداء القهوة وحفيف ورق الشجر في السكون الفسيح.

ومن السلالم إلى الرصيف، نـازلة بسرعـة، تندفـع. رشيقة،

خفيفة، إلى سلم الترام تتعلق بـه لترقـاه بخفـة. والهـواء يـطير بجانب سترة البلوفـر الملقاة عـلى الكتف المدورة الـرخصة المليئـة، ويدها، بحقيبتهـا الصغيرة، تمسـك بالجـانب الآخر من البلوفـر تضمه إلى ما تحت صـدرها. ونـور الترام يشعـل شعرهـا السبط البني المتوهج المتناثرة منه خصلةٌ طائرة على جانب الوجه الأبيض الغامض المعالم.

نعمات، جاءت في اللحظة الأخيرة.

وانفك على الفور توتر مقبض كان يثقل دماءه، ووجد نفسه، دون أن يـدري، عـلى سلم الـترام، معلقـاً بـالحـاجـز الخشبي الأملس الزلق، قدمه على الحديد الأسود اللامع، وقدمه الأخرى فوق، على خشب الترام، يكاد يحيط بها بذراعه، قريباً منه نفـحُ مـلابسِها وجسمهـا. هذا العبق الحميم الخـاص الـذي لا يكـاد يتميز فيه رائحة ما، ولكنه هناك، فيه نفس ودفء يعرفـه معرفـة وثيقـة مباشرة، يتغلغـل فيه، كـأنما هـو ينتـظره في كـل مسـامـه الداخلية البعيدة.

ويمد يده فيفتـح لها بـاب الترام الـزجاجي، وتـدخل بحـركة تلقائية دون أن تستدير إليه، وما زالت تنهـج من سرعة انـدفاعهـا لتلحق بـالترام، ولكن شيئـاً ما يـدفعها إلى النـظر وراءها: يـده الممدودة على البـاب، توتـر حسه بهـا، البهجة العـارمة المكتـومة تضج بها دماؤه داخل أسوار الجسم، ترحيبه الصامت باللقيا بعد جمود الانتظار، شيء ما دفعها للالتفات بسرعة. صدمة المفاجأة، وانفتـاح التعرف، وبهجـة الانتصار السريـع باللحـاق بما كـانت

تجري وراءه، والعثور عليه في وقت معاً، والامتنان للمجاملة إذ ينفتح لها الباب. لعل ذلك كله، وغيره، قد نزع قناع الوحدة عن وجهها اليانع الحلو، وأزاح صلابة الصمت والانعزال، فتنهمر ملامحها كلها في ابتسامة المفاجأة والفرح، وتستضيء، وتسطع بإشراق جديد، كأنها وجه جديد:

ـ الله.. شوقي.. أنت هنا؟ كنت فاكرة نفسي متأخرة.

ـ طيب نقول مساء الخير.. السلام عليكم.. بونسوار أولاً..!

ضحكتها المرحة، فيها ألفة قديمة، خافتة وغضة وأنثوية، وفيها لمسة من شقاوة ومعابثة:

ـ مساء الخير يا سيدي. السّلام عليكم.. بونسوار أولاً.. أمرك.

بهمس، حتى لا يسمعها الركاب الآخرون الذين يثبتون عليها نظراتهم المستطلعة، الجهمة، كأن فيها منذ الآن تقريعاً وتأنيباً وإدانة، وهما يشقان طريقهما، وهو يصطدم، مع تأرجح الترام، بالقوائم الحديدية اللامعة في الممر الضيق، حتى يصلا إلى الجلد البني الداكن، تحت زجاج نافذة ما زالت تهمي عليه قطرات متسايلة صافية، من الخارج.

وجلس إلى جانبها، في حرج طفيف من الاستقرار والاستعداد للرحلة القصيرة، تحت أنظار الناس. والكمساري يتجه إليها، كأنها هدف، وعليها ـ عليه هو على الأخص ـ أن

يتخلص من أسار هذا القصد، هذه النية التي تحيط بهما. فيدفع للكمساري الثمن، وتخرج هي بطاقة اشتراكها بصمت من حقيبتها، ويقف الترام، وتنطلق الصفارة، وتقرقع العجلات، وينطلق الحديد والكهرباء في زفيف على خط الرمل الطويل، في غبشة المساء المتزايدة، ولا يركب أحد، فتنفرج دائرة الحرج والضيق، ويخف ضغطها. ويحتدم حسه، مع هزات الترام الرتيبة ووقفاته واندفاعاته المتلاحقة، بوجودها إلى جانبه، قريبة جداً. جانب معطفه يمس ساقها المسحوبة الرشيقة، وهو دفآن في حسه بها، على الجلد القديم الوثير، ذراعه المتوترة في كمّ جاكتتها الملقاة على كتفها ناعمة الصوف نعومة جزء من جسمها، وصدرها يثقل البلوفر الخفيف الطري بلدونة خصبة لا يكاد يتضح معها الحز الداخلي المستدير، وهي تهز رأسها وتفتح حقيبتها لتمرر المشط بسرعة وخفة في شعرها الأثيث وتلتفت إليه بنظرة مسترقة مخطوفة كأنما تدعوه أن يتكلم.

ولا كلام عنده، في زحمة الضجيج الذي يمور بداخله بلا لغة.

عيناها، عيناها الغريبتان، نافذتان على عالم أجنبي، بلونهما الأصفر الصافي، مترقرقتان، واسعتان، قطرتان من ماء أجاج على زجاج لامع، والخط الأسود الرقيق على الحافتين، والظل الأسود الخفيف على الجفنين. ماذا تقول العينان؟

ـ عندك الليلة شغل كتير؟

تريدهُ أن يتكلم، لكنها لاتقول شيئاً.

- أبداً، تلات أربع ورقات تحاليل، أخلص منها وأروح للمحامي، بعد إذن سيادة الدكتور.

- لكن سيادة الدكتور مش جاي الليلة، أو يمكن ييجي متأخر.

- بركه يا جامع. أهرب نص ساعة وأرجع. ولا من شاف ولا من دري. أنت سمعت حاجة؟ عرفت حاجة؟

- بس بقى.. مش حتبطل تزويغ.

هل هي تعرف شيئاً؟ هل سمعت أحاديثهما في التليفون؟ وهل سمعت أحاديث الناس ولغطهم؟ بلا شك. نعم، إنه لم يقل لها شيئاً صراحة. وهو قد خلع الخاتم من زمان. منذ أن انجابت نشوات الأيام الأولى، واضطراباتها، ودفقات جنونها، وهي تعرف أنه يعيش وحده مع أمه وأخواته، بل تعرف أيضاً بيتهم من بعيد. لكنها تمسك أيضاً بيدها كل الخيوط، ولا شك أنها عرفت قصة زواجه ونزاعه وانفصاله، وهي على التليفون تستطيع إذا أرادت أن تسمعه يطلب المحامي ويناقشه، ويتفق مع الوكيل على المواعيد والإجراءات، وتستطيع أن تستخلص لنفسها الحكاية كلها. ومرة واحدة سمعتها مباشرة عندما طلبته من الخارج - على أنه قد حذرها الاتصال به على أي نحو - وصوتها الأنثوي الخشن العنيف. وعاكسته يومها، في معاتبة تبدو بريئة كل البراءة، لكنه لا يعرف إن كانت محملة بالتضمينات

والتلميحات، حولت إليه الخط، وبعد أن أنهى مكالمته الصاخبة:

ـ الله الله يا سي شوقي، مكالمات خصوصية في الشغل؟

هل استرقت السمع يومها، من على مكتبها من وراء الحاجز الزجاجي؟ كانت العيادة مزدحمة بأصحاب التحاليل، غائصين على مقاعدهم العتيقة المشققة الجلد في المدخل المعتم المترب المرتفع السقف. وبعد انتهاء المكالمة خرج وفي يده ورقة متعللاً بأنه يبحث عن التمرجي ليعطيها له، كأنما هي ورقة مهمة بنوع خاص. وكان الدكتور في المعمل أمام أنابيبه العكرة ومواقده التي تئز بنار محددة كاشفة، وقواريره المليئة بالسوائل الكثيفة والصافية. ونظرت إليه من وراء الزجاج، وهي ترد على التليفون، نظرة غائبة، ورفعت الخط وأوصلت الفيشة بحركتها التقليدية الكفء السريعة، حركة بنت تعرف شغلها وتجيده وتنفذه بفعالية تامة ولو كانت مغمضة العينين، ليست هناك. ولكن هذه النظرة البعيدة، ونور الصبح ينعكس من النافذة الجانبية على العينين الصافيتين، الخاويتين، في هذا الاتساع الأصفر الموحش الذي لا يطرف.. هل سمعت؟ التوسلات، والتهديدات، والدموع، والاستنجاد بالذكريات، وابتعاثات حنان ضائع، والتعلات، وبكاء ندم لا يعرف ولن يستطيع أبداً أن يعرف إن كان حقيقياً أم مرتجلاً من وحي اللحظة ـ فهو حار وموجع ولكنه أيضاً قُلَّب وخِتل، هذا يعرفه.. وعليه أن يسد قلبه أمامه، وإلا فلا نجاة. وألجأته في النهاية أن يقفل السكة،

بعنف، واحتدام مكتوم. فهل سمعت الحكاية كلها؟ حكاية توجع القلب. ولكنه سيخلص منها قريباً. وأحس آهة الكمد بعد أن أفلتت منه. لا بأس، المحكمة سوف تحدد لها النفقة، وينتهي، ينتهي. وقد أعطاها كل شيء، أثاثها الذي اشتراه هو بسهر الليالي وألم الكتفين وانكسار الظهر وزيغ العينين من الدق على الآلة حتى الصبح، شهراً بعد شهر، بلا نهاية. و «ورقة الضد» على نفسه حتى تأمن على نفسها، وصورها أيضاً وخطاباتها الساذجة من أيام الغزل الأولى القديمة الغارقة في القدم، كل شيء، فساتينها وملابسها وقمصان نومها. قشور النايلون الملونة التي طالما أماطها عن ثمراتٍ دبّ إليها العطب فلم يعد فيها إلا لحم مهدل نضبت عنه سلافة المحبة والتواصل. كل شيء أخذته معها، وأخذت معها جذاذة ضخمة مزعتها أيضاً من حُرّ نفسه ومن أطيب أجزاء عمره. أتندمل قط هذه الفجورة الغائرة في لحمه ويرمّ الجرح الذي نغل وضرب؟ أيجف أبداً قطْر المرارة والصديد والدم المتخثر بالعراك والمشاحنات؟ وما الجدوى الآن؟ سممت أيامه، وطينت بالوحل عيشته، نعم، وعليه الآن أن يظل يدفع الثمن، ثمن شهوته وشفقته، وجنونه وتمرده، ومتعته المعجونة بالجسد الملوث الوثير. وقد دفع، دفع، فهل يخلص أبداً؟

ـ إيه ده كله؟ اللي واخد عقلك يتهنى به . . وصلت لحد فين؟

لن يعرف أبداً ماذا تقصد بهذه الكلمات، وما يشبهها. دائماً تنكشه، وتخِزه، بلهجتها التي تبدو مجردة مستقيمة عارية من كل

كثافة ولكنها تحمل ثقلاً. لن يعرف أبداً ما رسالة هذه النظرات، هذه الضمة للشفتين الرقيقتين الرفيعتين تغلقهما على كلمة لم تتخلق بعد، أو لا تريدها أن تتخلق، لا تريدها أن تتخذ لنفسها صوتاً يعطيها القالب والنهائية فيستطيع أن يواجهها، أن يتعامل معها، أن يمسك بها، ولكن أهذه الكلمة هناك؟ أم هي وهم في ظنه وحده.

وفي سؤالها نبرة حنو لا يمكن أن يكون متوَّهماً، جرْس طيب أموي يبره وينحني عليه مهما كان فيه من دعابة ومعابثة. واصطدمت يدها إلى جانبه بيده. بعفوية؟ صدفة؟ لا يعرف. لا يعرف. لكنه يحس هذه اللمسة التي طالت قليلاً - لحظة واحدة أكثر مما قد يكون عادياً وتلقائياً وعفوياً - لمسة يدها بيده من على «الجيب» الصوفي الثقيل الوبرة، من على الاستدارة المليئة. هل فيها ضغطة خفيفة مقصودة مرت كاللمحة، واختفت؟ أم ليس فيها شيء؟ ما معنى هذه الاصطدامات العذبة التي ما تفتأ تتكرر؟ هذه اللمسات التي تجيء - دائماً - كأنما عن غير قصد؟ مس الأصابع الرقيقة المرهفة العظم، في زحمة النهار، والعمل، والمواصلات. مرة عندما يعطيها ورقة تحليل، كأنه يهبها شيئاً ثميناً وكأنها تتلقى الهبة. وعند صعود السلالم، صدمة اليد باليد على ثنية البطن الطرية، خطفة زمن هاربة، على مشارف عالم مليء بوعود نشوة مصفاة. وحس النهد الطيع على ذراعه عند المرور في طرقة ضيقة، لمسة لا تكاد تحسّ لكنها خصيبة، ووثيرة. عابرة ولكن كأنها لا تحدث في الزمن، ونظرة معها فيها دهشة

وسؤال ورضى وعمق لا يسبر غوره. . ما الكلمة التي لا تريد أن تنطلق؟ ما الرسالة التي لا ينفك رمزها؟ أهناك كلمة ورسالة؟ نعم، نعم، كلمة مركبة، ومعقدة. أين المعمل الذي يحللها فيه، وأنبوبة الاختبار الدقيقة المستطيلة التي تستدير ببطء على لهب «بنسون» يلعق زجاجها ويرسب أملاحها ومعادنها من تحت المياه الصافية الخادعة؟

والترام يمضي في عشوة الليل الزاحف، مندفعاً بزفيفه وجلجلته، بقوته الخاصة المتفجرة، مغلقاً على نفسه، يشق طريقه على القضبان الحديدية القابضة، مشحوناً بطاقة عنيدة عمياء، يخترق السواد المجهول الحالك. والأنوار من نوافذه الجانبية تجري معه ترتفع وتنخفض وتستدير، تلاحقه وتنتصب فجأة على جدران الرمل المتصلب القائم على الجانبين، في أكمات قريبة مهددة، مشققة بخدود أفقية متعرجة خطتها مياه الأمطار وسفعات الريح عبر أزمان سحيقة، وتنبثق من الرمال بحبوبها وكراتها وخطوطها، حرشات صغيرة خضراء خشنة تسطع في النور بلون وحشي وتختفي بأوراقها الكثة الداكنة. وتنهار سدود الرمل وتتراجع من على السكة لينفسح الليل عن براح مفتوح معتم، البحر بحضوره الغامض على مقربة، أنفاسه الرطبة بملوحتها المبلولة تهب على صهاريج البترول: ضخمة، مستديرة تلمع بألق معدني باهت البياض، جاثمة تحت سماء قاتمة، أثداء هائلة راسخة على ضلوع الأرض، كاملة الاستدارة، صلبة، تختزن العصارة المعدنية التي تغتذي منها المدينة وتدر لبنها الحريف

الرقراق في الشرايين الظمأى إلى الطاقة والقوة العمياء، ينطلق منها ألف حريق صغير مجنون محصور، كل لحسابه وفي طريقه المرسوم، على مسارات التوفز والتوقف والانطلاق، كل في حدوده، ترقبه عيون ساطعة حمراء وصفراء وخضراء، تشق جسد الليل بألف جرح محسوب، متفجرة كلها بالصراخ في ظلمة المدينة، شرارات تتوهج وتنطفىء، تتناثر منبثقة من مسام الجسد. ومياه ذهنه ثقيلة برواسب مرة الطعم، ملحية يمجها اللسان. لماذا الترام يختط هذا الطريق؟ أهذه شوتس.. المكس.. العصافرة.. العامرية.. القباري؟ هذه بلدته، هذه الإسكندرية، وخطوطها مرسومة على قلبه.. لكنه الآن لا يعرف أين هو منها.. ورائحة المدابغ الثقيلة الهاجعة تسطع، ثاقبة تنفذ إليه من شباك مفتوح، جفاف صحراوي محمل بعبء نتن لا يطاق. سحابة ليلية تهب به من نفاية إفرازات الحياة، الجلود المشبوحة العفنة تنسلخ من حياة إلى حياة، عبر محنة الموت والمجزرة، وخباثة الذفر، مزقاً دقيقة ماكرة الصنعة منمنمة ملساء تحيط بالأقدام الصغيرة النضرة، وتودع فيها الأسرار الصغيرة الأثيرة، ومفاتيح العلاقات بين أيادي الناس، والرموز المخططة الصامتة بكل لغة، جلود الحياة المتفجرة الخشنة القديمة تغدو جلوداً أخرى مصقولة ملفوفة حول حَيَواتٍ أخرى مكتومة تجري في مساراتها.

ـ أبداً.. ما وصلتش ولا حاجة.. كنت سرحان شويه كده.. تعرفي امبارح ما نمتش لغاية الساعة أربعة الصبح.

ـ يا خبر. . ليه؟ خير؟ كنت عيان والا إيه؟

ثم استدركت، ولمعت عيناها بنورهما الأصفر:

ـ واللاالعيار تقل عليك؟ كنت في سهرة لازم. .

في لوم واتهام.

واحتدمت ثورة صغيرة محبطة في داخله، وحلف لها، وصدق هو نفسه حلفانه، ومر القسم والتصديق مرور غاشية تعكر ثقل صفو ما، صفو رازح الركود لكنه مستقر. وجدت في غرفتي كتاباً قديماً بلا غلاف، من مهملات البيت، في ركن الدولاب. كله حكايات غريبة، تلك التي يسمونها خرافات. حروب قديمة من أيام الرومان أو اليونان أو مثل هؤلاء الناس، من أيام الإسكندر والفرس، وأسماء أخرى لا أذكرها الآن. . عن عاشق ينظر إلى الماء ويتحول إلى زهرة نرجس. عن بنت تصبح شجرة. . والله ما كنت نائماً، لكني لم أكن مستيقظاً أيضاً. لم أكن أحلم، ولكن لم أكن أستطيع حراكاً، مهيض العزم، متجمداً، حالة عجيبة، لا، لا، لم أكن قد شربت شيئاً والله العظيم. صحيح. كانت هناك واحدة، كالغولة في الحواديت التي كنا نسمعها ونحن أطفال. تنظر إلى الناس، والحيوانات، فتصبح كلها، من نظراتها، حجراً. . والأشجار، وكل شيء، أحجار جامدة. كل ما تنظر إليه. لا يستطيع حراكاً. والعرق يتفصد مني، حتى النفس ما عدت أحس به، ولكنني كنت مفتح العينين، وكان في الغرفة نور، لم أكن أحلم، لكني لم أكن

أتحـرك، ولا أريد أن أتحـرك.. يـاه.. لم يكن الليـل يـريـد أن ينجـاب.. أبداً ـ يـا شيخ، لا بـد أنك كنت تحلـم ـ أبـداً، أنـا متأكد.. هل كنت أحلم؟ أبداً.. هل هناك ما يحول بيني وبين الحلم؟ الشيء الوحيد الذي لا رقابة لأحد عليه، لا أحد يتحكم فيه، لا شأن لأحد به. كنت أنت يا نعمات ليلتها أمامي، راكعة على الأرض، ينسدل عليـك قميص نوم أبيض نـاعم النسيج، قميص سابغ ينزل من على كتفيك بانفساح، إلى الأرض، يخفي وراءه جسـدك كله، حتى ذراعيـك يحيط بهـما كم لصيق، حتى الرسغين، وكـان ثمّ صوت تـدفق للمياه، تهضب وتتسلسـل في خـرير مستمـر تحت الأرض، كأنـه في غرفـة سفلية، في الـدور الأرضي من البيت. حنفيـة مفتـوحـة منصبـة في مجـرى مـا، في الغرفة، كما ينصب ماء المطر على جوانب الشارع، ولكن الشارع هنا يجري في الـدور الأرضي من البيت، بين الحيـطان، في الليل، لا يهتم بـه أحـد. ورفعت إليّ وجهـك يـا نعـمات، في العتمـة، مشرقاً، أبيض. وقبلتك. شفتـك العلوية الـرقيقة انفتحت تحت فمي، والشفـة التحتية المكتنـزة، داكنة الحمـرة، في ضمة ريـانة ناعمة الملمس، ويدي حول عنقك الباتعة، المدورة تحت الشعـر الهش الأثيث، زهـرة رائعـة منبثقـة من الأرض. وأنـا أمص الرحيق، بشفة مكهربة، كـل الرقـة وكل المحبـة. كل العـزاء، وتيقـظت أرتجف.. وفي قلبي رقعـة فسيحـة من رضى شـامـل، مـرتاح، مـا أن استيقـظت حتى أخـذ يتحيف من أطـرافهـا قلق متـوفز، لاسـع الأسنان. كـأنني اجترحت إثمـاً ما، لا أفهمـه.

نعم، هذا هو الحلم. لكن قلبي دبَّاه وداراه وتحوّط عليه، كأنه لقيا يطمع فيها كل قلب. ماذا بقي منه الآن؟ خيط واه رفيع يتموج في قلب مياه ضحلة، لا لون فيها ولا كثافة. لكني بالأمس، لا، لم أكن أحلم والله، أبداً، كنت مفتح العينين، في الصبح وجدت نور الغرفة مضاء.. الله.. أما كلام فارغ صحيح. أنا عارف ما هذه الكتب؟ بلا غلاف، ولا عنوان حتى. ولكنها مؤثرة، تدير الرأس، كتب الناس القدامى هذه. لا بد أنه كان من كتب أبي. الله يرحمه.. أمنا الغولة، نظرتها تحول الناس إلى حجر..!

وضحك. كانت عيناه جامدتين، لا ضحك فيهما.

- إيه.. وصلت لحد فين؟

التفت إليها. وصلنا. وضحك، بسهولة فيها توتر خفيف، وهي تبتسم، عن أسنان غير مستوية فيها شتت محبب منفرج، عن رضاب لامع - لا حد لعذوبته، يعرف سكره - ابتسامة حلوة وغامضة وجذابة. وكانت عيناه تضحكان. كانت بيوت الأزاريطة العالية قد تراجعت، ومبنى هيئة الصحة العالمية بأعمدته الرومانية الجديدة، وسلالمه العريضة، ومئذنة جامع القائد إبراهيم العالية، وأشجار النخيل الهندي في الحديقة. واهتز الترام وهو ينحرف بسرعة في تفريعة خط المحطة، فألقى اندفاعه به بإزاء جسمها، لكي يستقر عليه لحظة، في تماس حميم صلب. ثم انطلق نحو وقفته الأخيرة في الضوء والحركة وزحمة

أول الليل. واضطراب الناس يهجرون القوقعة الدفيئة المضيئة بنور لدن ينصب بسهولة من مصابيح مستديرة هادئة، كاللبن الدسم، على الخشب الأكاجو الأصفر الداكن، على الجلد البني الطيع الغنيّ القتامة. وفي احتكاك الأقدام البطيء في طرقة الخروج الضيقة، والناس يدفعونه من الخلف، مد يده يسند ظهرها أمامه، وأصابعه تستقر لحظة على صفحة الكتف العريضة، تلقى مقاومة العظام الرقيقة المغلفة بالليونة الناعمة، ويحس تحتها بالشريط المشدود على الظهر من وراء الصوف المنسدل المحبوك، وينفجر مجد المساء الأحمر في انفساح السماء على الميناء الشرقية، وقد عمق الشفق وازداد كثافة وخصباً، السحب المشتعلة أطرافها بنار لا لهب فيها، والبنفسج الداكن يتحيف أطراف النار المنهزمة. وهبة من هواء شات بليل على العرق الخفيف على وجهه، وهما يسرعان، ويلمان أطراف المعطف والجاكتة حول الرقبة والوجه، وينشقان مع ذلك نسمة تملأ الصدر، وهو يمسك بذراعها يعرف مرة أخرى ملاسة استدارته المكشوفة من تحت صوف «التوينز» الناعم، عارياً تحت الكم القصير للبلوفر، وحركته حميمة مختفية عن الأنظار، يساعدها أثناء المرور من أمام العسكري الممدود الذراع تتطاير الريح بالكاب الأسود القصير على كتفيه.

وهما يدخلان قوقعة زجاجية أخرى منيرة بنور مترب مراق على خشب مشقق عتيق. والمصعد يئز في طاقته الكهربية المشدودة.

كانت هي التي فتحت له الباب، بعد أن وقفت زنزانة

المصعد الحديدي، في طرقة بيتها الرثة، أمام جدار أصفر باهت مسدود يتساقط طلاؤه في بقع مبيضة حائلة، والباب الهش قشرة مهتزة واهنة القوى، وهي تنحني بعصبية الترحيب، بابتسامة صادقة، بأهلاً وسهلاً، لتنحي أحد أخوتها الصغار من الباب، وقد جروا جميعاً ليلبوا دقة الجرس - الذي كان قد بحث عنه، بحيرة، بعض الوقت - وهم يتزاحمون بين ساقيها وحواليها. وكان حر أغسطس رطباً، وهواء الطرقة مكتوماً. ونفثات من روائح أكل بعد الظهر ونوم القيلولة ما زالت معلقة بالحيطان والبيبان ودرجات السلم المعتمة غير النظيفة.. يوه. أوعى كده يا نبيل. استنى يا تونى. مش عيب يا بابا، عيب، وهي منحنية تزيح الولد العفريت الذي يجري بين الرجلين، وتستقيم فوراً، فيعود انهيار صدرها الصغير بثمرتيه الناعمتين العاريتين - وقد سطع لعينيه، لحظة، طرياً، يهتز، في انحنائها - ويتخذ مكانه الآن في مستقره من فتحة البلوزة الخفيفة الواسعة الجابونيز. وعظام وجهها الأبيض تتحدد في عتمة الباب والنور من ورائها. ويفاجئه شريط أحمر عريض معقود على الشعر البني المسترسل الهش الملمس، القاتم الآن في انعكاس النور من خلفها، خيوط نباتية كثة دمثة، وتضع يدها لحظة في يده، وتضمها على أصابعه، رخوة، دقيقة، عصفور صغير ملموم ناعم الريش، وتشده بأهون حركة وأرقها إلى داخل الفسحة، وتسبقه، وصيحات الأولاد يتقهقرون متواثبين إلى المواقع الداخلية الحصينة وهم يتصايحون: ماما أبيه شوقي اللي بيشتغل مع أبلة

نعمات. ماما عندنا ضيوف. . ماما. . ماما. . يوه طيب يا ولاد أهلاً وسهلاً. وحركة القيام من على مراتب الكنبة المريحة من أغوار المواقع الخفية لأداء واجب الترحيب في سهولة وطيب قلب.

وأخذت طقوس الترحيب مجراها المعتاد. في غرفة الصالون الضيقة، شهودها قطع الأثاث القديم والصور الزاعقة الألوان والمخدات السوداء المرسومة بالنخيل والجمال من ليبيا، وشمس بعد الظهر الحامية من وراء الستارة الكريتون المنقوشة بالورد الملون، وهو يتحدث إلى الأم عن حكاية الشهادة التي تريد استخراجها من البلدية. ويأخذ منها أوراقاً مطبقة مصفرة رقيقة الأطراف فيها عطن حائل لا يكاد يحسّ من طول بقائها في الظرف القديم بلا شك، تحت الملابس في الدرج العلوي من دولاب أو بوريه أو تحت مرتبة السرير، والخيرة فيما اختاره الله يا ضناي، نعمات والله بتشكر فيك خالص يا سي شوقي، وتعزك زي أخوها، قالت لي عنك كتير ودايماً بتجيب سيرتك بالخير يا بني، ربنا يرضى عليكم يا خويا ويسهلها لكم ويبعد عنكم ولاد الحرام، والدكتور ربنا يخليه راجل طيب وابن حلال، والثرثرة العجوز تسترسل وتطيّب القلب، وهو يستريح إليها، راضياً، ولكنه لا يخطيء فيها مع ذلك نغمة لعلها مقصودة، لهجة الأم التي ترحب بعريس محتمل، وتستكشف الطريق، وتمهد الجو لعَدَل البنت التي في سن الزواج، في ثقة وتمكن ومن غير اصطناع ودون اقتحام.

ونعمات تأتي له بالشاي على الصينية الزجاجية، ويسطع له مرة أخرى وجودها في مظهرها الجديد الحميم، في غير ملابس العمل وأناقتها المصنوعة، بأناقة جديدة مستريحة، وذراعاها العاريتان تبدوان منعشتين، نسمة من هواء البحر الطري في الحر، وقد تكسر البطن، واسترخى النهدان بجانبي البلوزة الواسعة، والبنطلون البيتي الصيفي من قماش خفيف كاروهات أبيض وأسود ـ صغيرة، هندسية ـ يستدير في نعومة بالبطن والردفين، في التصاق حميم، ويتحملها في رفق، يقيها من الانهيار في الضوء، وينتهي تحت الركبتين بقليل فيترك الساقين الفارعتين المسحوبتين رخامهما أبيض بارد. وهي ترفع ساقيها لكي تجلس على الفوتيي أمامه، إلى جنب، فترتفع القدمان العاريتان من على الأرض، وتدفعهما إلى تحت جسمها، فتلتصق بطن القدم الرقيقة بسمانة الساق المكشوفة المستديرة. وتستريح في جلستها، وترفع فنجان الشاي لكي ترشف وتستطعم، في تخفف من كل عبء، حسية الراحة على الفوتيي ومذاق السائل الأحمر الشفاف المنعش بسخونته، يعدل المزاج، ويرطب الجسم. والأحمر على شفتيها، من لون الشريط العريض المعقود على الشعر، والخط الأسود الحالك السواد الذي يحيط بالعينين، ويحددهما، ويكسبهما سعة ذئبية نائمة الضراوة، في صفرتها الباهتة وهج الشاي المشع، وهي تبتسم في ارتياح، ولكن فيها شيئاً مهدداً كامناً، كأنما فرغت من أمر الفريسة، وهي تتمطى في أدغال الأثاث الرث القديم.

دخلت عليه فجأة وهو في المعمل، بعد انصراف الدكتور، وحاول أن يفرش «الأهرام» على طبق الفنجان، لكنها كانت أسرع من حركته، ورأت نثار دخان السيجارة المفتت في الطبق، والقطعة الصغيرة المغبرة اللون بجانبه. ولم تتكلم. كان المعمل معتماً في آخر العصر، ولم يكن قد أضاء النور وفي عزمه أن ينتهي من السيجارة قبل أن ينصرف إلى ليله الطويل المثقل بالعمل. كان وجهها رخامياً في العتمة، أكثر شحوباً مما رآه في أي وقت. وقالت له بصوت مضطرب أنها نازلة، فلم يسرع إلى النزول معها كعادته. وأكمل ما هو بسبيله، وقضى ليلته يكتب مذكرات مستعجلة لأحد دكاترة الكلية. هل ثقل عليك العيار؟ أبداً والله العظيم. لم أكن أحلم. وهذا ليس كله بشيء، هو يشرب لكي يساعده ذلك على السهر، والعمل. هذا كل شيء. كانت عيناها تتقدان بهذا الوهج الأصفر المحرق، نار مركزة، وصوتها مرتفع ثاقب لا يعي إلا نفسه، في مناقشات ومشاحنات لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد، مناقشات في العمل، هذه المرة. هؤلاء النسوان لا يفرغ لهن ضجيج، وورقة التحليل، الست التخينة جاءت اليوم وفتحت عقيرتها، لماذا لم ينته شغلها؟ وحسن الممرض حرامي، لماذا تتركه يسلم الشهادات للمرضى بنفسه. ليس هذا عمله، ووقاحته معك. ليس هذا من شأني ولكن لماذا تسكت على لسانه السليط؟ أنت المسؤول، لا شأن له بالشهادات. أنت المسؤول، أليس كذلك؟ وهل تعرف ماذا يقول عنك، من ورائك؟ ولكن هذا يحز في نفسي، وأنا مالي..

والشفتان الرقيقتان ترتجفان، شفرتان حادتان لشيء قاطع، وهو يحاول أن يناقشها، أن يرد عليها، بحجج هادئة، وقد جف قلبه، ونفسه تفور. هل العمل حقاً هو مبعث هذه المجهات التي تكاد تفقد فيها كل تحكم في نفسها؟ أم السبب امرأته، وحكايتها، أم اكتشافها في المعمل، في آخر العصر، أم هو حبوط ما في دخيلتها يتفجر بالقشرة الساكنة البيضاء، ويشققها، عن هذا النفث من لهب وحميمٍ آن؟ وهو ينهض، ويدور حول جثة الآلة الكاتبة السوداء، والأوراق المتناثرة. ونور الشمس ينصب من النافذة الشرقية بزجاجها السميك العتيق، ويسقط على كتفها. ثم يأخذ بذراعها يدعوها أن تجلس. ندت عنه لحظة، ثم استرخت في المقعد، كأنها قد استنفدت معين غضبتها، والكتف المدورة الناعمة تحت القماش الأبيض الخفيف مشرقة في أشعة الشمس، حلوة الإستدارة، وينحسر طرف «الجيب» من أعلى الساق، وركبتها البضة فوق ساقها الأخرى، واعدة، متحدرة من ربوة الفخذ تحت النسيج الصيفي. بم يرد عليها؟ وما جدوى الكلام؟ أي شيء يحقق له ما يتوق إليه من اندماج كامل، ووفاء كلي بالوعود التي ينبض بها الجسد؟ ما من شيء فيه وفاء بالوعد. ما من سبيل إلى الوفاء بالوعد. وعليه أن يروض نفسه، ويسومها الصد، وينأى. عليه أن يجاهد هذا الحريق اللاعج الذي يطوح به، يدفعه للارتماء على أبواب هذا الهيكل الباذخ الناعم الرخام. وينحني، وهو يرد عليها. وشفتها السفلية الداكنة الحمرة ما زالت ترتجف، أهون رجفة، مكتنزة

بخصب لن يعـرف طعمـه أبـداً. حتى لـو عصفت الأنفـاس الحارة، ودفعت ظمأه إلى الثمرة الغنية بالرحيق، فهناك في داخله منـطقة جـدب كاملة لا ارتـواء فيها. ذراعـاه فيهما تـوتر كهـربي مشـدود، لو أنـه ضم إلى صدره هـذا الهيكل المنيف. هنـاك فيه منعة لا تطال. وبصره يقـع فجأة عـلى ثنية تحت زرين من أزرار قميصها الصيفي، ثنية من البطن العاري تحت القـماش انكشف للضوء في انحناءتها للأمام، وهي تضع ساقاً على ساق، عجـين طري متماسك القوام تحت كنزين صغيرين يحملان وعوداً أخـرى مخبوءة في ضمة النسيج. ألم يعرف هو، عبر محنته الطويلة، ختل الوعود؟ زمّ نفسه، في عناد لا يطاق، عن أن يحيطها بذراعيـه، فهو يعرف، يعرف أنه لن يجد شيئاً. ومهما كانت النار موقـدة في المحراب، فإن قدس الأقداس خاو على عروشه. وهو يعرف أنـه سيبقى دائمـاً، دائماً، خـارج الأبواب، يشرب، ويعمـل طول النهـار، ويعمى من الشرب والشغـل، هـذا كـل شيء. رنـين الجـرس المفاجىء العنيـد، فتقوم تـرد عـلى التليفـون. نـداءات معدنية مصمتة لا بد من الرد عليها، التليفـون والباب والسـاعة والترام، تحرّشٌ لا ينقطع ووخز الإبر المشرعة في اللحم الحي.

صدى صلصلة الجرس تحت سماء مفتوحة باهتة صافيـة مخففة الزرقة بالماء، كِسَف السـحـاب البيضاء في الشرق تخفي استـدارة الشمس، وينسكب منها ضوء رقراق طلق صحو، والترام يصعد فجأة، في رحلته الطويلة، على كتف من الأرض الرملية، يتسنم متن الطريق، بين سورين من أسلاك مشدودة على أوتاد حديدية

عالية. وتنكشف زرقة السماء من بين الأسلاك، وهما في الترام، فوق، على القضبان، فوق قمة العالم، تحت السحاب الأبيض، النوافذ مفتوحة يهب منها النور المبلول القادم من البحر، وهناك فجأة، تحت، تنفسخ أمام عينيه، الصحراء. ومدينة الملح في وسط العراء. امتدادات من مياه الملاحات الساكنة تتلألأ عليها طبقة بلورية من الملح اللامع. وتقوم في وسطها أبراج عالية مخروطية، عليها صلبان فضية تلمع وتعكس وهج النور الصباحي، وقباب مستديرة مغبرة البياض، ومآذن سامقة نحيلة، وتبدو له سطوح البيوت، والمنائر، متلاصقة مربعة، ومستطيلة، مبنية بالطوب والحجر. وقد ساخت البلدة كلها في وسط مستنقعات الملح، وليس في المدينة من حركة، وسط المياه الساجية المكسوة بالملح، سهول فسيحة حواليها، والماء الملح يترقرق على طين رملي رخراخ، أمواجه ضحلة صافية على قاع الرمل، يلعب تحتها الضوء، في قلب الصحراء الشاسعة المسطحة حتى الأفق، ويهبط الترام فجأة، تغور به الأرض، وترتفع حواليه السدود الرملية القديمة المغسولة بمياه الأمطار من الشتاء، فيها تجويفات رملية صلبة، والترام يشق النور الخفيف الساكت، في رؤيا من حميا رائعة، وأوراق التين الشوكي الصلبة المشعثة ونباتات الصبار الجافة الداكنة، منتصبة شائكة، تضرب فيها عصارة كثيفة نزرة الماء.

وهما وحدهما، في الترام الخاوي، يقف على المحطات الخشبية، والأرصفة خالية، ويقوم. والسائق مندفع، بين

فجوات الصمت وضجيج القرقعة، ويده تتلمس يدها، وتعثر عليها، فوق استدارة الجسم وبين حناياه الطرية، وتتداخل الأصابع في تماسك حميم وثيق، في بحث ملهوف. عظامها الرقيقة تصطدم بأصابعه، تحت جلدها الدمث، الغض، وتدفن نفسها بين ثنيات يده، متلمسة أيضاً، تنقب عن شيء ما، عن تواصل ما، عن اندماج محموم، متعجلة، تجوس، وترتاد، وتتفحص، في إلحاح، ولجج، ولهفة. والدماء تضرب في رجولته. الأبراج والقباب تنبض تحت الشمس، في مدينة ساحلية مهجورة في الصحراء، تحت طبقات الملح. والخطوط الحديدية تتشابك وتتداخل وتنفرج، والمحطات تتوالى، ثم تتراجع بين الرمال.

والترام يقف، ها هي ذي المحطة، وينتزع يده، ونفسه، منها، فجأة. ويقف، لا يقول شيئاً، وإنما يجب أن يجري، وينزل يلحق محطته، قبل أن يقوم الترام، ويندفع، في غشاوة محمومة منيرة. وما تكاد قدمه تمس أرض الرصيف، وما يكاد ناظر المحطة، الذي يقف وحده، ينفخ في صفارته، وما أن يستدير ليلوح لها بإشارة التحية والوداع، وينفث الترام أولى آهاته، متأهباً للحركة، ويصلصل الجرس، حتى يدفعه فجأة شخص ما، من ورائه، دون أن يراه، إلى داخل الترام، بينما الترام يتحرك. وهو يقبض مرغماً، متشبثاً، على حاجز السلم بخشبة اللامع القديم، في هذه الحمى الساطعة، في صمت المحطة الصحراوية الخاوية، وهو على سلم الترام، وقد بدأت

القضبان الحديدية تتراجع تحتـه، وجسد القـاطرة يـتزلزل في أول حركة. وإذا بحـاجز السلم الخشبي ينخلع مـرة واحدة في يـده، ويرتفع في الهواء. وهو يتطوح، والترام قد تجمعت طاقتـه واندفـع إلى الأمام. وهو قـد تزايـل، لا يستند الآن عـلى شيء، وقدمـاه تـتزعزعـان من على السلم، والـرصيف قد تـراجـع، ويـده قـد ارتفعت قبضتها بالحاجز المخلوع، وهو يتطرح، ويتهـاوى، على وشـك الـتردي إلى الــوراء، في سرعـة انــطلاق الـترام. ولكن الكمسـاري يمد يـده فجأة، ويجـذبه، ينـتره إلى الـداخـل، مـرة واحدة، وهو يثب، لا يحس شيئاً، وإذا هو في الداخل، في أمان مؤقت لحق لهفتـه، وآواه وراء زجاج الـواجهـة، عـلى رقعـة من أرض الترام المعدنية المنطلقة في طريقها.

يا أخي مش تحاسب، حصل خير على كل حال، الحمد لله، جت سليمة. كأنه هو المذنب، كأن هذا الحاجز الخشبي المخلوع لم يكن هنــاك، ولا ذاك الـذي دفــع بـه إلى سلم الــترام، من ظهره. كأنما كان سيقع، وتقع الحادثة، بخطئه وذنبه. وكانت قد ظلت جالسة، بلا حراك، تشخص إليه ببصرها، ثابتة الـنظرة، في عينيها ماء متموج مغرورق، لا ينسكب، صامت، على قـاع أصفر ذهبي باهت، به نقاط رقيقة سوداء.

والكمساري يتجه إليها، في قصد، يـطلب شيئاً، مهـدداً، لا يتكلم، لكنــه لن يـتراجــع. ومن ورائـه، من الــدور العلوي للترام، نـزل الأعـراب، متجهـين إليهـا، يـطلبـون شيئـاً، لن يتراجعوا. لمة من البدو، هم من سكان العامرية، بـلا شك، أو

هذه البلدة الصحراوية، من النازلين في المصحة. على أكتافهم ورؤوسهم بطانيات صفراء ناصلة، بها مربعات زرقاء باهتة، يخفون بها جوانب وجوههم، لا تبدو إلا عيونهم السوداء الضيقة، جامدة، عميقة لا يسبر لها غور، تحت أهدابها الشقراء، على الجلد الأسود المدبوغ، وثنيات الغضون في وجوههم تبدو خطوطاً رقيقة معرجة بيضاء في الجلود القشفة التي صوَّحتها شمس لا ترحم، وصَهَدها حَرّ قاس لا يني يعود يوماً بعد يوم. وحول الفم تقرحات بيضاء، كأوراق معرّقة باهتة، ممزقة من وسطها مزقاً مشعثة، يغطونها، بأطراف البطانيات، بأيديهم المعروقة السوداء التي تشعّب البياض وتشرُّج في سوادها، بأزهار وحشية الشكل، شائكة كالصبار. وهم يجتمعون حواليه، وراء الكمساري، صامتين، عيونهم ترى، ولا ترى، محترقة، مصوبة نحوه، مشدودة إليه، تسطع في غورها، لا تطرف. ماذا ترى فيه؟ كل منها شمس صغيرة متقدة، يتألبون عليه، بأعوادهم الضيقة الخاسفة، ضاوية أجسامهم تحت البطانيات، وقد حفوا به، كأنما يتوقعون منه الخيانة، وينتظرونه، وقد اعتورته، برغمه، سحابة همومهم، وغشيته غاشيتهم. بؤرتهم هو، هدفهم، ونواة احتشادهم. ويمد إليه الكمساري إصبعه، في تحذير، هؤلاء قومك، هؤلاء ناسك، اطلب أيآمنهم تجده. تحت أمرك. أنت منهم، وهم لك. أنت، نعم، أنت.

وقد ارتمض من ذعر مفاجيء، نفضه من شلله، فهب يفلت من خطر محيق.

ويندفع، دون أن يدري، يجري، يثب، ويسقط من الترام المنطلق بها، بالكمساري وبالسائق، وبهم، بهم جميعاً. هنا محطته، لا طريق له بعد الآن. وتتطوح الأرض تحته، ترتفع إليه، صلبة، ثم تنخفض به. وهو يجري. تتلاحق ساقاه إلى الأمام، يكاد ينكفىء على وجهه، ويستقيم، لا صوت يند عنه، يلوّح بيديه. والترام قد انطلق بعيداً عنه، أصم، مغلقاً على ما فيه.

ويقف، يشد قامته، وقدماه تثبتان على الأرض الرملية، يصدر عنها حفيف جاف في السكون الذي يعود فيرين على كل شيء. وليس في قلبه حس ما، إلا بأنه وحده، وقد وصل إلى آخر السكة. وحده، في رمل الصحراء، ينسكب عليه ضوء رقراق من وراء السحاب الأبيض الخفيف. والهواء جاف، طاهر، والصمت مطبق، تام، في فراغ الصحراء، أمام الخطوط الحديدية الممتدة، حتى النهاية.

الأميرة والحصان

انكسر العمـود، وندت عنـه دقة واحدة، نهائيـة. وانـطبقت الظلمة، والدهشة. تهاوت عظامه على الأرض، طرية، كـالماء، تجتذبها الرمال المتربة القـذرة المتماسكـة. وعنـدما فتح عينيـه كان السقف عالياً جداً، بعيداً، بقماشه المسـودّ الصفيق، متهدلاً بـين عروق الخشب المائلة، ساقطاً على العمود المـربع المفتـول. لم تكن هنـاك نسمة هـواء. وفـوق الصخب والضجـة والنـور، كـان في السقف ثقب صغـير أسود تـبرق فيه، من بعيـد، نجمـة وحيـدة صلبة، عين قـاسية. والعـرق ينثال من بـين أبطيـه، خيطاً سخنـاً جديداً، والأرض خشنـة تحته بحبـوب الرمـال والتراب الـدقيقة الحادة. والفحيح ما يزال كـالمعتاد، عن الكلوب الضخم المـدلى، شرساً، على رأسه. سحابـة مسدودة من النـاس تتجمع حـواليه بسرعـة ولا تنهمر، ولهم طنـين، يحدقـون بـه من كـل جـانب، كالناموس الكثيف تحت شمس ظهر حار. ومن ورائهم موجـات متراكبة من الضجيـج واللغط، لا بلل فيها لشفتيـه، تنكسر على هذا السور من الأجسام المنحنية عليه. لم تكد تمر لحظة واحـدة. هادئة تماماً، خـاوية، لم يشـاركه فيهـا أحد، ولا شيء. تقـوض

فيها هيكل كل شيء. صدمة الألم لحقته فجأة، زلزلته مرة واحدة، وغمرته، وأغرقته، ثم انحسرت عنه. وتركته مغسولاً، أبيض. ضربات الطبول توقفت ثم عادت، وموسيقى النحاس تصطفق. كانت عيناه صاحيتين، وهو على الأرض، لا يحس الآن ألماً ولا دهشة. وجلبة الناس حواليه، يشورون ويتصايحون، ضوضاء لا صلة لها به. وحواليه فراغ كامل، فجوة له وحده وسط زحام متكاثف مكتوم، وهو ينظر إليهم بعينين لا غيام فيهما. دخّلوه من هنا. حاسب. تليفون للإسعاف. فيه دكتور هنا؟ الإسعاف جاي. اعملوا معروف والنبي. لا سليمة الحمد لله. مات يا عيني الجدع. يا حرقة قلب أمك يا خويا. بصوت ناعم هادىء مدفون. سليمة. ما ردش منطق. سليمة. إن شاء الله سليمة. دخّلوه هنا، الإسطبل من هناك. حاسب. اعملوا تليفون للنجدة. والطبول تخبط، لا تدق له. طنين الذباب الأزرق الكبير في شمس الضحى العالي، وتحت وجهه حس فتائل الخيش الخشنة، والتبن، والتراب، برائحته الجافة المصوحة الحريفة في الشوال تحت صفحة خده وفي أنفه وفمه. وهو يتقلب، ويفتح عينيه في عتمة صباحية يحيط بها قماش خيمة الإسطبل الكابية القديمة. وسلطان يزفر في معلاق التبن تحت خطمه، وينفخ فيه الهشيم الأصفر الدقيق المتطاير مع الغبار والذباب في حزمة الشمس الساقطة بين فجوات القماش. يدق الأرض في توفز، بحوافره القوية، وساقيه الأماميتين المخروطتين الرشيقتين. ومن ورائه الخيل الأخرى مربوطة في أوتادها

المرتفعة، في آخر الخيمة. الساعة كم، عشرة.. إحدى عشر.. غسيل الخيل الآن، وتمشيتها في الحوش. دبدبة الأرجل حوالي الإسطبل، وشتائم السياس واللاعبين والمروضين والعيال، من الخارج، مكتومة، نبحات الكلاب الدقيقة الثاقبة وزئير السبع العجوز، أجوف قصيراً خاوياً، مع صلصلة باب القفص.
وهب يجلس على فرشته وظهره يطقطق من وجع النومة على الأرض الجافية. يلعن ديك دي بلد، لم يطلعوا منها حتى بثمن العلف. ما زال على مولد سيدي البدوي شهور. ربك رزاق كريم. مولد أمبابة، ومار جرجس، والمنصورة، وسيدي الدسوقي، وموالد القرى، هدة حيل من السفر والقيام والحط بالسكة الحديد واللوريات وآخرتها نفس النومة على الأرض في كل مكان. أم لعله العجوز ابن الكلب يريد أن يأكل حقنا. حار ونار في جنته. بس يشغلنا سايس وبلياتشو وبياع تذاكر وصبي عالمة، مغسل وضامن جنة كمان. والله لو ما الست أميرة. نهايته الأرزاق على الرزاق. يا فتاح يا عليم على وش الصبح. وتوقفت عيناه فجأة على العصافير، وجمد. كانت العصافير تثب وتزقزق في خفوت، بين سيقان سلطان الرقيقة السامقة وأجنحة الذباب الأزرق الكبير التي تعكس شعاعاً بنفسجياً زاهياً، وتنقر بعظام أفواهها الدقيقة أكوام الروث السوداء عليها الكرات الجديدة الصفراء الساخنة التي يتصاعد منها بخار خفيف، وتنط على التراب والتبن، صغيرة متوترة بريشها الرمادي الداكن في غبش الخيمة في الصباح، تفترق

وتلتقي على العلف والتبن وبين جرادل الماء وفرش الغسيل، وتسقسق بصوتها النحيل بين المجاري المتعرجة التي خطتها على الأرض مياه بول الخيل. والرائحة النفاذة تتوقد وتشعره بإلفة وأمان، بأنه في بيته، بين هذه الأجسام العضِلة الحية التي يستمد منها جوهر حياته، لا يستغني عنها، والبطون المستديرة الضخمة تنبض أمام عينيه، نبضاتها السريعة. وصهل سلطان فجأة، ورفع خطمه المبلل الذي علقت به نثارة التبن وتطاير منه رشاش سريع، وجاوبته بربرة متلاحقة من صهيل بقية الخيل، فتواثبت العصافير في لمحة، سحابة صغيرة من الريش الذي يزف والشقشقة الثاقبة المذعورة، إلى فجوة ضيقة في قماش الخيمة الممزق رشقت أنفسها فيها في انطلاقة مسددة لا تخيب. وضحك، ووقف يحك أنفه من التراب، وفي فمه جفاف القيام من النوم في الضحى العالي، يستشرف سخونة طعم الشاي وسلساله الطيب على اللسان وفي قصبة الصدر، ومد يده يطامن توتراً سخناً جافاً من وخم النوم الدافىء ومن رائحة أجساد الخيل. طالما نشقها من استدارات طرية أخرى، من حنايا اللحم اللدن تحت مايوه الشغل الساتان الأبيض، في ضوء الكلوبات الحار المشبع بالتراب، وسط الموسيقى النحاسية الجعجاع، وهدير الناس على مقاعدهم الخشبية، وهو يتدحرج ويلعب نمرته في الليل، والساقان الخمريتان الصلبتان على ظهر سلطان قائمتان، من رخام لامع ندي مسنون، يحملان جلال الدنيا وطراوتها ومجدها، وقرقعة السوط المرفوعة به ذراعها

الملفوفة الناعمة، نضيرة بلمعة العرق ومتوترة، عاليـة في الهواء، ودورات سلطان الضخمـة الرشيقـة المتسـارعـة بـاطـراد، حـول الحلقـة، وهو تحتـه وجنبه يتقلب ويجـري ويـدور ويثب، ويلطم وجهـه من الخوف والإعجـاب فتترامى إليـه الضحكات الخشنـة التي ينفرج بها توتر الناس أمام خطر الدورات الجريئة المحسوبة، وأمـام الفتنة المتحدية التي تقـطع الأنفـاس من المـايـوه الـلامـع المحبـوك، والرائحـة تغزو جسمـه الآن، ويتوتـر لهـا، أمـيرة، أم سلطان؟ حـريفـة، لاذعــة، بهـا عــطن حلو من نفـح العــرق الأنثـوي. وذكورة الخيل معاً. ويفجأه الصـوت الخشن العذب، صوت بنت البلد الذي يصدر عن حـريـة كاملة، دون أدنى كفٍّ لمـا يجيش فيـه من غلواء شبـابـه: هـو ابـن الكلب ده لسـه مـا قامش. أنت لسه نايم يا واد أنت؟ مـالك واقف مبلم كـده ياد؟ هِمّ شف شغلك بقى يـا بن ال. . بنبرتـه الممطوطـة، وسيطرتـه، ودلاله، ومعرفته بأنه لن يُرَد، وثقته التي لا يعتورها شك بأنوثتـه اللينة. وهي تنحني لترفـع قماش البـاب ثم تتركـه ينسدل ويحف التراب. ويحيطهما، مع الخيل، حضورها الحميم الحار في الخيمة المقفلة، وتـولد الحيـاة في الجسم الفتي، تحت الجلابيـة الـرجـالي الـواسعة المشمـرة الكمين التي تحب أن تلبسهـا في الصبـح. الله ـ ما بلاش شتيمة على الصبح يا ست أمـيرة، يا فتـاح يا عليم. باحتجاج مَنْ يعرف انه ليس هناك ما يحتج عليه. ما احنا قـايمين أهوه. ما تصلي على النبي أمال يا ست الكـل. نهارك حليب إن شاء الله، يا صباح الفل. طقوس معابثة الصبح التي تفتح أيامه

وتحلّيها. فل إيه يا واد إتنيل على عينك. ما تبطل لماضة يا واد، نهارك أبيض يا خويا، هِمّ يا واد بقى بلاش لكاعة. بسخرية حميمة أليفة فيها رضي، ولا مبالاة، وقد وضعت يدها تضغط على عنق سلطان التلعاء العضلة، فراح يحمحم، بخطمه المبلول، في يدها الأخرى المدودة بقطعة السكر تحت شفرتي فمه الغليظتين المرتجفتين، وعيناه متسايلتان من الحب. وهي تلقي إليه بنظرة بينما ينحني يلملم الفرش وينفض معلاق التبن ويصطدم بالكيزان ويرفع الجرادل، بساقيه الهزيلتين السوداوين الناصلتين تحت لباسه الأصفر الواسع المتهدل إلى ما فوق ركبتيه والبلوفر القطن الحائل الاخضرار على فانلة نصف كمّ اهترأت رقبتها، من تحت البلوفر المغضن، حول قفص الصدر الناحل المدور، ويهرش شعره المجعد ينفض عنه نثار التبن ويحك منه تراب النوم، وسقطت يداه إلى جانبيه، ذراعاه ضاويتان متسختان لا قوام لهما. وسلطان بجلاله الرشيق يدور، يدور بسرعة، ينزو صاعداً وفوقه النصب القائم الجميل، لامعاً، متوتراً في توازن ثابت ولكن حرج رقيق، مشحون بحياة متفجرة مكبوحة معاً، والترتر في حواف المايوه الأبيض يتألق تحت ضوء الكلوب، وينطفىء، ويتوهج بألف لون، يعلو ثم ينخفض، وهو ينظر برأسه المسبوكة المنحوته إلى مواقع حوافره التي تعرف إيقاع دقاتها على الأرض، ويفلت منه وهو يجري حواليه، يدور ويتقلب على الرمل المفروش الترابي، وينكفىء على وجهه بحركاته التي حذقها حتى كاد ينساها، وما زال سلطان ينفلت

منه، يسبقه، وفوقه أميرة، يقتحمان المدرج الخشبي، يلف مرة أخرى، في الهواء، جسمه الأشهب المشوق يخترق الناس المتحلقين الساكتين، يدور بهم، وفيهم، يمر من خلال الألواح الخشبية الرثة المتمايلة، ينفذ عَبْر الأفندية بالجاكيتات الضيقة الكتفين على الجلاليب الإفرنجي، والمعلمين بكروشهم الراسية وقفاطينهم الجوخ الغالية وشيلانهم الزاهية الحريرية، ويثب على دكك الترسو المكظوظة بالجلاليب والطواقي والعمم والملايات اللف. على ثبج ظهره العاري المسبوك الأملس عمودان من مرمر مخروط ينهضان بالجسم السامق الذي تهتز فيه أمجاد العالم، في الساتان المحبوك، في سورة ساطعة. بلا صوت. السوط في يدها تلتوي انثناءاته السريعة لساناً حاداً نهماً ملتهماً، دون فرقعة، لماذا سكتت الطبول؟ الآلاتية في التخت يدقون ويخبطون، وأقراص النحاس ترتطم وترتعد بين اليدين المحمومتين، في ذبذبتها الكهربية الخاطفة، ولا صوت. الأفواه محيطة بالأبواق تمسكها مسكة خبيثة لا تريم، الرقاب منتفخة الأوداج من عزم النفخ، ولا صوت.

سلطان يدور، في تصميم لا يبالي شيئاً إلا دورانه، وأميرة ترتفع حتى تكاد تمس قماش السقف الأسود الداكن، فوق الكلوبات التي تئز بنور شرس، ثم تهبط في وسط الناس بين عواميد الأخشاب المتشابكة، من خلال الدكك الطويلة الدائرية المتأرجحة، يحملها اندفاع الحصان الذي يشق أمواج الصمت والوجوه الصلدة الصخرية، وزحمة الأجسام المتلاصقة لا يند عنها حس، ولا صوت. نواة صلبة من عناد مغلق متحجر، في

غور الأحشاء الطرية المبللة المرتجفة بالدم، لا تند عنه آهـه. غاشية متملكة تطوف بقضبان الضلوع الخاوية دورة بعد دورة، حول البذرة الجافة، تسمو وتسوخ بها الأرض. في البؤرة جيشان مكبوت يهم بأن يلفظ نفسه، ويمجها، ويصده إصرار ما، ويحدق به تماسك العظام الحرج، في وسط الحلقة الدوارة، عمودها قد انكسر، ولا يسمع له صوت. حفيف النفس يلهث، ولكنه يعمل بانتظام. مركز ثاقب من النور يجرح، يجرح العينين، إبرة مرهفة السن مغروزة بثبات في حدقتي العينين المفتوحتين، لا تطرفان. كحل يحيط بالعينين الحلوتين. ما أندر العيون الحلوة، وطفاء، أهدابها تفرش على الخدين الأسيلين القمحيين، فيهما خجل ومعرفة نضرة بعد وعميقة معاً، عروس جديدة بفستانها البمبي برقبة مكشكشة، تحت الطرحة السوداء، وعقد كبير أصفر الحبات، وعَصبة الرأس بالمنديل تبدو تحتها قصة الشعر السوداء الناعمة، وإلى جانبها زوجها الفتي بوجهه الناحل الخشن المجدور الجاف، وعينيه القلقتين، عموديّ في جلسته المحرجة، جلابية بيوشها لم تغسل بعد، رقيقة النسج يتطاير بها الهواء على أوتاد متراكبة من خشب عظامه، وطاقيته بفتة بيضاء، مزهّرة، يجلس في توفز يشي بارتباك مدوّم، والبنت بجانبه دسمة طيعة، تدور بعينيها الحلوتين المكحولتين في الناس، تنظر إليهم لأول مرة كأنما انجابت عنهم ـ لا عنها ـ غشاوة عذرية كانت تحجبهم، فهم يسبحون الآن في ضوء كاشف متغلغل، وهي تراهم الآن بعين فيها خبرة جديدة.

وهو يتدحرج مع العينين بين سيقان الحصان الوثيقة المدملجة التي تطفر بلا صوت وتشوخ به في الهواء على كتفي البنت الصغيرة السمراء، بوجهها الجائع، وصدرها الأمسح الضيق، في فستان العيد المجعد المغضن الثنيات، ترفع ذراعها الممصوصة الطينية، بنصف كمّ، تنزلق عليها غويشة زجاجية لامعة، وتتعلق برقبة أب عجوز مخدد الوجه، ناتىء مشدود الجلد على عينين محترقتين، تحت طاقيته الصوف الكابية. البطن الأشهب المستدير ينبض في دورته، يغوص في مياه الوجوه، يشق السطح ويهبط بلا نفَس، وفي اهتزازات المياه الشفافة. شبه مفتوحة متدلية تستطعم، في وهم حسيّ، مذاق عجين الجسد المشدود وقبابه الخمرانة، وكوفيات ملتصقة برقاب مختنقة. الحوافر الصلبة الدقيقة تدق في الهواء، وترسم إيقاعاتها الهندسية المحكمة، في عطن الملاءات اللف القديم المسدود على نفسه، يلمّ عطب نصف العمر، في وخامة دفء تفه الطعم لا حرافة فيه ولا حلاوة، لم تعد منه جدوى. العينان المدورتان اللامعتان الذكيتان مصوبتان إلى الولد الذي يضحك، دون صوت، فترد عليه البنت الشقية المراح بابتسامة صافية، بدلال، وتدفعه في صدره، وهي تفتح فمها وتغلقه، تومض أسنانها، تشتمه وتضحك، بصمت تمتمة شفاه في قراءة صلاة، على حصير ناعم محاط بأعمدة حجرية بيضاء وشبابيك زجاجية بأشعة شمس أرابيسك. الرقبة الشماء شامخة تنتهي بعضلات وطيدة عند أركان الصدر العريض المتين الأساس، تمزق كثافة الناس باعتدادٍ فيه كل التمكن والجلال.

وهـو يتقلب معه، يقـوم بشغله، شأنـه كل ليلة، عينـاه معلقتان بنجمته الشاهقة ذات الأشعة القوية الـراسية القـواعد عـلى متن موج أشهب وثيق العضل، تطير في الهواء، وتنقلب ـ هذه لعبتها المخيفـة الرائعـة ـ على ظهـر الحصـان، وتعتـدل عـلى الفـور من جـديد، مشـدودة ثابتـة، وتخطف أنفـاس الناس، ويـدوي رعد التصفيق والضجيـج، وتـعود تـدور، وتنقلب من جـديـد، وإذا البنيان يميل، أهـون ميل، ويتضعضـع ـ لحظة واحـدة أو أقل ـ وقلبـه يرتكض في جـوفه، من اللهفـة والفزع، ويتـطاير هـوجـاً، وهو يندفع في لهوجـة مجنونـة وتصميم لا يعي شيئاً إلا انـه يبذل نفسه فدى، يقيم من جسمه السفساف الضامر صخراً أمام المـوج المتحدر المتهاوي. هل استقام البنيان المتقلقل، واعتدلت على عودها سارية الشراع، أم انصهرت الدعـائم وتسايلت في زلـزلة عـارمة جرفت أمامهـا نُقاضـة السد الضئيـل؟ لم تنتفض به إلا انـطلاقة رمت به تحت أقدام كل المجد الذي في حياته، الذي في الحيـاة، يقيمه ـ بكل ما لديه ـ من خطر النقوض والتردي. وكل ما لـديه لا تبدو له أبعاد ولا أوزان ولا ضِخَم. لا يعرف ولا يخـطر له أن يعرف إن كان شيئاً كهبوة غبار تسف به نسمة هواء أم ضلعاً من جبل يملأ حيز الوجـود كله، جَلداً راسخ المتـون. الناس في مـاء جودهم الصفيق المصقول، يهـدهدهم الخـطر وتهوم بهم سحـابة استغراقٍ كامل مبهوت، ومـا من شاهـد على هـذا التفلت الذي طـوح به، هـذا النـزوع لـلاستشهـاد، دون شهـادة. تـدحـرج البليـاتشـو على الأرض مرة أخـرى، دحرجـة رثة، لم ينتبـه إليها

أحـد. ولــم يتحـرك. ومضى سلطان في دورتـه، وعـلى ظهـره العاري صرح ثابت ناعم عال من جسدها المنتصر الـذي يومض حَجْره الأبيض. ساق رقيقـة ممشوقـة مشدودة العضـل، متفجرة متنزية بحياة لا ردة لها، ضربته ضربة واحـدة، أم وقعت الخيمة كلهـا، وانقض العمـود، وسقـطت السـماء؟ وجنـدلت الأشـلاء ملمومة في إطارها الذي انقصم، وهيض، كأنها سليمة لم تمس، طـريـة كمجـرى من المـاء النـزر عـلى رمـل قليـل، سريــع إلى النضوب، وشمس صغيرة قاسية تحـدجه، في الصمت، من غـير دهشـة. ينفجر كـل شيء بالصـوت فجـأة، فـرقعـات البمب في الخارج، وقصف الطبل الضخم، رتيباً أجوف، يرن كل صدى له في احتشـاد مليء، وقـرقعة الصنـاج النحاسي وهـزيمة المـرتعش، وانـطلاق البوق في تمـوج كثيف يسد المسـامع وأزيـز الكلوبـات سرب هـوامّ متقد مستمـر لا ينتهي له احـتراق. وسّع يـا جـدع تلاتة بريمو عندك. فتّح عينيك تاكل ملبن. وهديـر الأصوات في لجة مترابـطة الأطراف ثقيلة القـوام، وضحكات أنثـوية متخلعـة وتحـديات متحـرشة وإثبـات للجـدعنة بصـوت جهـير، وجلجلة السبـع العجـوز، وجمجمـة الخيـل، والكـلاب تـوقـوق خـائفـة بصيحات صغيرة، وأنفاس التّراب تحركه الأقـدام وزحمة البهجـة بالمولد تطن وتدور في سحابة من دخان مشاعل النيران ومصابيـح الغاز على عربات الترمس وكهرمان الحمص المدور الصغير وحب العزيز اللحميّ الأشعر وأزيز مـزامير الغـوازي وزمزمة المواويـل الـطويلة وغرغـرة النـراجيـل ونشيش عـدة الـوشم عـلى الأذرع

والصدور والصوت المبحوح يجأر في قلب الغمار فتح يا جدع الرجا الابتعاد من السبوعة اللي معاه عيّل يمسكه في أيده المروّضة المصرية العالمية تدخل على الأسد البنت المصرية تشكم الأسد ياجدع وتلعبه فتح عينيك وصلّي على النبي مَلحة في عين اللي ما يصلي على النبي الست داخلة على الأسد يا جدع. وتعليق بذيء وضحكة مقرقرة طويلة متحشئة، ودقات الطبول قد جنت وفقد النحاس كل إيقاع وعاد رعداً مقعقعاً متعاقب الخبطات متوالياً محموماً ينتهي إلى سكتة غائرة عميقة جوفاء، ثم فرقعة السوط، وصفقة باب القفص يصلصل بالقوائم الحديدية، وقد أحيط بالبنت والأسد في وسط القضبان. الكل يصقّف.. اللي بحب النبي يصقّف يا جدع. ومطرة متناثرة القطرات من التصفيق لا اقتناع فيه وإن كان فيه فرح، وهيصة. والزئير الواهن العظميّ له صدى بدائي مسحوق، دورة مذعورة أمام العصا والكرباج، رأسه مائلة منكمشة ونظرته المنطفئة مثبتة بالتهديد الماثل أبداً، ثم وثبة كقط منهوك على الكرسي العالي وقد استراح من تعب اللف والدوران، والعُرف الملبد بالقذارة والتراب متدلٍ على ضلوع نحاسية صدئة معفرة. وهو يدور ويتقلب على الأرض، يدخل القفص من خلال القضبان القائمة ويخرج منها. كأن الحديد المنصوب خطوط ماثلة في ناظريه وحده، وهم مشقق لا يراه أحد غيره، ويصفق بيديه ويلطم وجهه في رعب مصنوع لاستهلاك الناس، وإعجابٍ موضوع الخطة، وضحكات قليلة تصل إليه، ونفحات هذا الكائن ذي الألف وجه والألف عين

والألف يد تملأ خيمة السيرك المهدلة المحتشدة بأنفاس بدائية أعمق وقعاً من الزئير الأجوف الخشن المبحوح. يستفزه ويستفزه هذا الجمع الوحشي الذي يتلمظ بتهديدات متهاوية الأركان فيريد أن يثبت له شيئاً ما لا يدريه. فهو مع الأسد وزمجرته، وتحت سيقان الحصان، ومع البهلوانات، ووراء الراقصة، وحول الحلقة، وعلى طول الحلبة وعرضها، يقفز ويقع ويتدلدل ويندلق ويتدحرج ويتدأدأ في هرولة ويتدربأ ويبرك على الأرض جامد الوجه مصبوغاً ويتهاوى وينط ويجري في دردبة ويتشيطن ويعوج خلقته المرسومة بالأبيض والأحمر للصغار والكبار ويطفح الدردي، بلقمته، في الليل والنهار. عندما فتحت عيني، على صهيل الحصان وحمحمته، كانت تقف على رأسي في الإصطبل، كانت قدمها في الشبشب المفتوح تدفعني في جنبي، بأصبعها الكبير، توقظني وهي تشتم شتيمتها الصباحية المألوفة، وثورة عاتية من صدمة اليقظة وألم الدفعة في صدري تهزني وتمخضني وتضطرم بجنوني ثم تنفثىء فجأة وأنا في خدر اليقظة المضطرب. وكانت واقفة في العتمة، في رائحة الدفء الحيواني الساطعة الكثيفة اللاذعة، والجلابية الرجالي تسقط على ركبتيها لتؤكد ملامسة مدورة ناعمةً فيهما، وقدمها اللدنة، بعظامها المكسوة المبطنة، مرفوعة في حركتها السريعة، بيضاء منبثقة، بحياتها المتحركة المشدودة، من عتمة الجو، ومن العتمة الداخلية الأخرى للثوب السابغ المنسدل. رفعت رأسي من النوم أحس أني أموت من اللهفة، في داخلي عصفور محبوس يتخبط في

ضلوع صدري، أصابه سعار انطلاق لا سبيل إليه، وجهي يتقلب على خيش المخدة المحشوة بالتبن والهشيم ويتعرف مرة أخرى - كم مرة؟ كم مرة؟ - على خشونة الخيوط الجافة المتربة، ويتلمس - عبثاً بلا جدوى، بلا طائل - رقة بيضاء في بطن القدم المكورة المسحوبة، في فجوتها التحتية الحميمة الناعمة. ومن الظلام يتقلب ثنايا عجين آخر متخثر وعطن، والبت عزيزة زمبلك قد نضت عنها فستانها رمش العين النبيذي وألقته عنها بسرعة وبلا اهتمام في حركة آلية، كما تفعل الفلاحات، وارتمت على الأرض، تريد أن تخلص وتفرغ من الأمر من غير عطلة، ووضعت الورقة أم خمسة شلن في مخبئها بين ثدييها الممتلئين، ورفضت أن تخلعه. زفرات الخيل النائمة، فجأة، تطس الرذاذ على التبن. والذيول تخبط صفحات الكفلين في توفز، تهش شيئاً في حلم الليل، وخيشة الفرش الخشنة تتلقى العجينة المسكوبة على الأرض وطوايا اللحم ما زالت عالقة بها رائحة البودرة التي تفرش بها كل إمتدادات جسمها كل ليلة قبل الرقص. طنين الهوام والبعوض الصغير تحت نار الكلوب الوحشي النهم. وقد تضرجت، وزوقت كل بضاعتها المتراكمة للعيون، يا قشطة، أيوه كده يا مهلبية، أموت أنا، نظرة يا حلو لإجل النبي، وهي ترقص، على وجهها فتحة ابتسامة منسية، وهو يتقلب، من ورائها على الحلبة، تحت ألف عين، وحواليها، طول الليل يتدحرج ويهرّج، يستجدي الضحكات النزرة، ويطيّب لكل النِمَر، من الأسد للراقصة، من الكلاب للحصان للبهلوانات،

بوجهه المرسوم بالأبيض والأحمر، ببكاء مصبوغ دائم، وينطلون مهدل مرقع بكل الألوان، وضحكات الجمهور وهتافاته البذيئة، مع موسيقى الرقص المتراخية، كأنها هي أيضاً تؤدي واجباً بلا حماس. وهي تدفع بساقيها الثقيلتين، وترفع قدميها الحافيتين من على التراب، في غير اقتناع، تهتز وتنثني، رازحة، وهو يثب ويقع، يؤدي شغله، وجهها المتضرج المزوق فريسة للنور، بحواجبها الممسوحة المرسومة من جديد بخطوط سوداء وكحلها الثقيل، ما زال حول عينيها المفتوحتين الجامدتين في غبش الإصطبل بقع متقطعة من السواد. ويقع الأحمر المستديرة على وجهها تلمع، يا زمبلك، أوعى السوسته، شفاه مصبوغة لحيمة تحت النور القاسي، بلون قان كالدم اليانع يتجاوز شفتيها المفتوحتين إلى أطراف الفم الملوث بنضح الدم المتجمد، ولغت فيه وشبعت، وصدرها الضخم المترجرج يكاد يثب من بدلة الرقص الساتان الصفراء الفاقعة، وهي تلف بذراعيها المدمكتين، حول ظهرها، طرحتها الشفافة السوداء المشغولة بالترتر الأحمر، تخفي أطرافها الممزقة بين يديها، وقد علق بها تراب أبيض باهت. أصوات رشفات غليظة متلاحقة من ألواج البريمو من أكواب الشاي الأسود الزارد وقرقرة مياه الجوزة ودخان المعسل وهدير الكلام وضجيج السيرك والمولد معاً يكاد يغرق الموسيقى النائمة المتباطئة، وصبي البوفيه يقرقع بملعقته في كوب الشاي على الصينية. والعرق قد ساح بالكُحل وسال بالبودرة على ثدييها وجوانب خصرها المتين، يخط خطوطاً خمرية لامعة

على الجسد المكتنز المبذول للأعين والشفاه التي لا ترى ولا تجد فيه طعماً. وقد فرغ دورها وخرجت، حافية، قدماها تحتكان بالرمل والتراب، دون أن ينتبه أحد، والأضواء على الحلبة انطفأت، وجاء إليها وهي تنهج، وما زالت على وجهها ابتسامة دم منسيّ داكن، ولفّ حولها الروب الأحمر الرث دون تصفيق، فلم يستعدها أحد، والناس في عنفوان الليلة يقومون ويتحركون ويلغطون والجوزة والقهوة المضبوط والشاي الكشري تدور وتتلقفها الأيدي والشفاه في الاستراحة بين الألعاب، وأحس كتفيها تحت ذراعيه، وهو يحيطها بالروب، كأنه يحميها، ضئيل وراء ضخامتها الساكنة، ملطخ مثلها لا أحد ينظر إليه، وبينهما فهم مفاجىء دفيء، سرعان ما مضى، ولم يتكلم أحد، فهذا من ضمن الشغل، عليه أن يلبسها الروب وهو يهرج، لكنه الليلة صامت، قد أهمل شغله، ونظرت إليه نظرة واحدة، غريق يستغيث دون صوت، من عينيها المدفونتين في الكحل ولحم الجفنين المترهل والتجاعيد المكتنزة الملوثة بالألوان الندية بالعرق الدهني، ثم انطفأت النظرة وغاص الغريق. وهو الآن وراء الست أميرة في الاستراحة، الاستراحة ليست له، يدور ومعه صور باهتة الزرقة مطبوعة بالحجر بالحروف الثلث البهلوانة العالمية أميرة تروض سلطان الفرس العربي الأصيل، وفي يدها طبلة ورقّ تهزه فتجلجل صناجاته الصغيرة وفي يدها الأخرى صينية يلقي الناس فيها بالقروش التي ترن والأوراق المطبقة أو المفرودة المغضّنة يكاد يطير بها الهواء وابتسامتها متملكة

آمرة كأنما تقتضي حقاً وتتأدى دينا، والمحافِظ الجلدية الصفراء تخرج من العبّ معلّقة بالدوبارة المتينة وتنفرد طية بعد طية ليستخرج منها الشلن الفضة أو القرش البرونز أو أم عشرة المطبقة أربع تطبيقات متوازنة، وهو يسلم صورة ويهش الأولاد المتدافعين عليه، وهي لا تكاد تنظر إلى الفلاحين أو الأفندية، بل تنتقل بخطى رشيقة، في المايوه الأبيض اللامع المطرز بالترتر، وسط ركام الجلاليب والملاءات والقفاطين والبلاطي التيل الكالحة، ومن الناصحين من يقوم قبل أن تصل إليه، ومنهم من يتشاغل في حرج وعيناه لا تستقران على شيء، وهي تستند إلى الواح الخشب وترتقي السلالم المتأرجحة، حتى وصلت إلى العسكري الضخم المفتول، والشرائط الحمر على كمّه الأصفر، يجلس في البريمو، راكز الأركان، متين المنكبين، في عنفوان رجولةٍ مسيطرة وصولة لا يُخافِت بها، وهو لا يكاد يلقي إليها بنظرة ساخرة من علياء هيكله المحتشد بالقوة والغلواء، نظرة إعجاب صريحة فيها الدعوة والسخرية معاً، نظرة ثور قوي وذكي أيضاً، يعرف استجابة أنثاه المحتومة. درت حواليها أستبقها كأنما أدعوها أن تمر، فما في هذا البغل من جدوى. ولن يعطينا شيئاً، وقد فارت نفسي وأجهشت واعتمل في صدري الذعر واللجج معاً، ولكنها تلمس كمه بيدها، برقة، وتهز الرق، وعندما استرقت النظر إليها رأيت التواء فمها بحركة احتقار مدربة، كبنات مصر، حركة تحرش واستفزاز واستجابة، تستنفر وتتحدى، وتعد بمجرد التحدي. ومد يده البغل ببطء إلى تحت الأزرار النحاسية

اللامعة واستخرج قطعة بشلن، ورماها إلى الصينية، فرمت هي إليه بعينيها، وأحرقتني العينان. لذعة لهيب منبثقة بطول أحشائي وعرضها، شريط كاو أحسست جوفي يستشيط منه وتنسلخ منه مزعة متقدة بالنار. وقالت له، كبنات مصر، بهمس: مرسي، من أعماق عينين مثقلتين مضطرمتين، ومالت عليه ميلاً لا يكاد يحسه أحد، وإن كان فيه دفء غريب حميم، وهي التي لم تشكر أحداً غيره، مهما أعطاها، وطول الليل أتقلب وأدُور، في حلقات من الظلام والجنون لا تنتهي، ألف قطعة من نار مؤرثة الأوار لها حرقة لا تنطفيء، ويهجس في نفسي ويوغر صدري ألف خاطر مجنون عقيم يتحطم أمام صلابة صماء مسدودة، وبكيت كالأطفال، بحرقة بكاء الأطفال، بلا أمل في أن أحداً سوف يفهم أبداً، في استسلام كامل لنفضة الدموع، ولم أخجل، وفي أنفي وقلبي رائحة التراب الجاف. من أنا؟ لا شيء. لا أحتكم من خير الدنيا على شيء. صحيح أنني دائماً مفتح العينين، لسِن طلق اللسان، صوتي في الجلبة مشروخ مبحوح ولكنه أعلى الأصوات، ثم هأنا في الليل، معدم، عريان، يعوزني كل شيء. ولكن لا يعوزني أنني أحبها. هذه ثروتي، كنزي، لا شيء. عبيط وأبله. وحدي. ووحيد. أمام ثروات الخيل النابضة الجسيمة. وعظامي مكشوفة للهواء، مفككة، لا يربط بينها شيء. في مرة قالت لي: إشمعنى مع البت عزيزة زمبلك بتشتغل بقلب، ومعانا بتلف كده زي المسطول، وبتشتغل من غير نفس، بطّل بقي وساخة يا بن

الكلب، ووجدت نفسي أبتسم من ورائها وفي داخلي عربدة مكتومة من الفرح، وحس سعيد أن عندي شيئاً له قيمة تطلبه، وتفتقده، تظن أنها تفتقده. مَنْ هذا الذي يئن من أعماق أحشائه، كأنه مضروب في قلبه بسكين، ضربة الموت. أنين غائر غريب، في الخواء. أنين لا يقصد به شيء. لا ينادي محبة ولا عطفاً، لا يريد يداً تمتد إليه. أنين خافت، خاص، حميم، بينه وبين نفسه، عقيم يصدر من جوف الأرض، من تحت طبقات لا نهاية لغورها. أنين محبوس مكتوم لا يدعو شيئاً، لا يعرف شيئاً. والموسيقى تضج حول كل شيء، تهيء الأرض لآخر لعبة. والولد الصغير يمدد جسمه على البساط، والبهلوانات، في شبابهم وقوتهم ومرحهم، يعابثون الولد ويجربون قوة احتماله، فسوف تتكوم عليه أثقال البهلوانات جميعاً، ساقاه الرفيعتان وبطنه المتهافت سوف تطيق عبء كل هذه الأجسام الفتية بالحياة والعضلات. أبو جلمبو صغير وبائس ورث، خرج من الماء، وسوف تقوم على صدفته الهشة أعمدة العظام المتوترة تعلو في بناء يتهدد دائماً بالسقوط، والقوقعة الرخوة تستميت في التمسك بالأرض، وتعدّ نفسها لمؤونة احتمال أثقال هذا البرج على القشرة الرقيقة القابلة، في كل لحظة، للانكسار. ولكن أخته تثب فجأة من فوقه، إلى الحبل المشدود، طفلة أنثى تتلوى على حافة الهاوية، بملابسها العريانة الصغيرة، فتائل الحبل وحدها ترفعها في الهواء، في الضوء الفسيح، وهي تنحني ببطء، وتميل، وتثب فجأة فإذا هي نائمة

مشـدودة على الحبـل، اعضاؤهـا المنهكـة منبسـطة ممـددة إلى آخـر حدود الامتداد عـلى الشريط المهتز الـرفيع، وثـدياهـا البرعميـان النابتان يرتفعان من منحدر الصدر النحيـل، نحو السـماء، وهي في حركة تمـددها عـلى الحبل تتلوى، وتلتصق، وتتـطلب، كأنمـا تمتص من هذا الشريان الملفـوف عصارة البقـاء، تنزح عنـه آخر استنفـادات الحب والماء النـزر الذي يـظمأ إليـه عودهـا الأخضر الخام الغليظ الملمس، ثم يدق الطبل دقاته المتـلاحقة، ويتقـاطر التصفيق في غير حماسة، في تردد وانتظار. ويُعَدّ المشهد المضحك الأخـير وهو يسرع فجـأة فيشد البسـاط الناصـل القذر من تحت الولد، ويقفز الطفل فيعطيه صفعته المعتادة، ثم يعود فيرتمي على قاع الأرض، ويعلو صخب الناس وعجيـج الموسيقى، والنـاس قد حميت دماؤهم من لغط المولد وسورة المعسل والشـاي وامتلاء الفم بعجين الحمص وطعم الحلاوة الحاد، بالسمسم والسوداني. وصرخات باعة الكبدة ولحمة الراس والبمبـار من وراء القماش، كل واشبع واقرأ الفاتحة للسلطان، دويّ أمواج المـولد المتـلاطمة في خـارج خيمة السـيرك، مـع هينمـة حلقـات الـذكـر المتـمايلة ولهاثها، ومزامير المواويل ودفوف المداحين التي نشطت ولجت بهـا نشـوة جـامحـة، ورقصـات الغـوازي قـد امتـلأت بهـا الإيـدي والعيون، وفاضت، وهمهمة نيران المشاعل على عربات العرائس الملونـة بأجنحتهـا الورقيـة المفضضة كفـراشات مـزوقة حجـريـة العينيـن، مستديـرة ببطونها الـلامعة من السكـر الأحمر، ودقـات البمب وخبطات ألعاب الحـديد، في حميـا آخر الليـل التي تكاد

تصل إلى ذروتها، ودوار الدخان قد اتصلت حلقته. وسوف تنطفىء الأنوار قريباً والجذوات الملتهبة في حلوق الفخار التي تفح بدخان المعسل، وتمهد قرقرة المياه المحبوسة المضطربة، وتخبو المشاعل على عربات الترمس والحمص والبلح، وتغدو رماداً خشناً لا يحيا. يقظة متوترة أخيرة تجتاح كل شيء، انفعال متوهج، وتطلّب حميم قلق مشعوف الأصابع لا يقع على شيء ولا يمسك بشيء. والولد الصغير يمهد لجسمه الناحل نومته المشدودة على الأرض، يحفر بصفحتي كتفيه مستقراً وطيداً للأثقال التي سوف تتركز عليهما، ويتلمس الأرض تلمساً وثيقاً مدعوكاً، يمتح منها معيناً ضنيناً من قوة مدفونة، ويدفع نفسه، متمدداً، متوتراً، مغروزاً على التربة الصلبة التي سوف تصد عنه الانهيار، وتتلقى وطأة البنيان المشيد المقام على عظمه، في الهواء. والأجسام تتراكب فجأة فوق هذه القاعدة التي تبدو هشة رقيقة، الصدور مبسوطة ممتلئة الأشرعة تقاوم الزلزال، واندفاعة الحياة صاعدة نحو السماء، يهددها خطر لا ينزاح. تَطوِّع استحالة، وتتفطر أمامها النفس جزعاً. ودق الطبول ينصب الآن في انهمار حاد سريع، والسيقان والأذرع الأنثوية تمتد مفتولة وناعمة وعضلة بين خشونة هياكل الرجال وعظامهم الوثيقة، الأعضاء كلها متلامسة في نقط محسوبة متماسكة، تمتد، وتستمد توازنها من قشرة رفيعة متوترة ملتصقة بالأرض، تُصعِّد أنفاساً لاهثة محكومة، تنمو منها سيقان وأذرع وأطراف مهتزة ممدودة متخلعة مزعزعة وثابتة معاً، كحيوان واحد نابض قد تخلق فجأة، في

لحظة واحدة، ويقوم منتصراً، في الهواء. لحظة واحدة، من الرشاقة، والخفة، والاكتمال. مجرد لحظة هاربة، من الثبات المتطاير المفهاف، يحلق منتصباً، ناهضاً على أعمدته الهشة القوام الراسية الجذوع. ريش نسر واحد مبسوط الجناحين، يقف، مشدوداً في أعالي أطباق السماء. ثم يتضعضع، ويتقلقل، من علوه، وتتخلع أوصاله، وينهضم. وينهار متهاوياً في زلزلة انقلابات متفجرة وشظايا مفتنة تستدير في كل ناحية كأنها قطع مكسورة منفلتة من آلة هشة انتسف محورها وانحطم، والطبول تصرخ صرختها النهائية مع صفقة النحاس المدوية المرتعشة الأخيرة، وهو يتقلب على جنبه، وجهها ينحني عليه، مضرّجاً لامعاً من العرق، مشرقاً باهراً كقرص الشمس، عين لا تعرفه، وجه لا صلة له به، صامتاً في بهرة الوحشة المتوهجة، لا رسالة فيه، لا يقول شيئاً. دهمه الوجه، في لحظة خارج الزمن، وأمسك به، حبه القديم يعصر قلبه حتى الجفاف ولا ينتهي أبداً تقطُّرهُ.

تدلى وجهه المعفر الملطخ بالأبيض والأحمر نحو التراب، كرأس معلق أمام دكان من دكاكين الجزارين، ساقط إلى أسفل، مرشوق بخطاف حديدي أسود، مفتوح العينين. وجه غاض منه كل نداء، لم ينفتح على حرارة ما. وقد طويت عظامه الرقيقة، مهدودة، على نفسها. ليست بحاجة إلى شيء. وهم يدخلونه إلى الإصطبل، إلى دفء الظلمة، إلى الحنايا الوثيرة من عجين الأرض الغنية، وينفضّون من حوله، وأصوات صغيرة تتنادى، بحثاً عن نجدة لا جدوى فيها، لن تجيء..

جرح مفتوح

النافذة مفتوحة على بحر الليل المضطرب، وهواء الصعيد الجاف له موسيقاه، ومن الداخل تأتيه رائحة الطلاء على الجدران الجديدة، تحترق من الحر. وهو لا يكاد يتبين قامات الرجال، كالأعمدة، أكتافهم حجرية، تحت ثيابهم الفضفاضة، كأنهم ليسوا هناك، في ظلام الشارع الضيق، في البعد الغائر العميق. بِرَك النور من الفوانيس، آسنة، تطفو عليها سحابات الهاموش الليلي وهي تموج، من غير صوت.

القبة العريضة صدر ممتلىء بشهيق محبوس، لا ينفرج أبداً عن زفير، وقد انعقدت عليها طبقات مترسبة في نقش مطموس المعنى. والسقف الواطىء المتين يقطعه ضلع مكسور التأم بالتراب القديم، ويصعد منه البرج المربع القصير، تأتي السماء الصلبة من ورائه، وتخترقه، وتثبت فيه، مثقوبة بإبر مشعة لا عداد لها، بين الجوانب الراسخة السميكة. جرم الجرس الضخم المعلق، أخرس ملجماً، يُثقِل البناء الجاثم، تحت، في وسط ربوة الأرض المنحدرة، مدفونة فيها درجات السلم

الرخامي الناعمة المدورة الحواف يتخايل له وضحها الباهت، من عالم سفلي.

وهو يستدير إليها جالسة في النور الأزرق الناصع الذي يتقد، مدلى من الحبل الأبيض الرفيع المضفور. ساكتة، محنية رأسها، شعرها جدائل كتان سوداء كثيفة، يفور تحت الطرحة التي علق بسوادها التراب. ساقاها، حتى القدمين، تحت الجلابية الضافية، ممتدتان إلى جانبها، هيكل ساقط بين حقول الكليم الصوفي الخشن النبات.

ـ أجِيَّه.. أجِيَّه.

يربطها هذا الدم الواحد الرازح الوطأة، وهذه العشرة فدادين من الأرض في حضن صخور الجبل.

كانت خطواتها، طول عمره، حذو خطواته. قرينته، يحسها معه ولو كانت غائبة، يحس وقع نظراتها عليه، صابرة مطيعة، الأخت التي لا عوض عنها أبداً، معه في كل مكان.

ـ اسم الله عليك، وعلى أختك.

كان صوت أمه يجيئه، ملهوفاً، يقيله من عثرته، عندما يقع على العتبة الرخامية الممسوحة.

ـ أنت الآن أبي، وأمي، وأخي معاً... قم الآن كل لقمة.. قم، تنام وتستريح سحابة الليل، حتى يصبح الصباح.

كان مكسوراً، خاوياً، في آخر الليل. فقد كل ماء الحياة. عيناه حجريتان نضبت عنهما كل عصارة. في عينيه الحفرة الطينية

التي أسقط إليها النعش. وما زال صوت التراب، وهو يسقط على الخشب، يغص له حلقه ـ ارتياح آخر الأعمدة في حضن الأرض ـ وكان يغالب إجهاش الشهيق المكتوم. .

ـ نام يا خوي. . يا خوي! يا بوي! يا بوي. . !

صرخة اليتم الكاوية التي لا يندمل جرحها أبداً. لقد انقضى آخر يوم من مجدها.

ماذا حدث الآن؟ ماذا يحدث؟ كيف يطيق مرآها؟ كيف تثبت عيناه بهذا الوجه الصغير الرقراق الذي تخفي نصفه الطرحة السوداء، ولا تبرحان؟ ولا يستطيع أن يحول بصره عن هذه القامة الناضجة العذراء تنسدل الجلابية على ثمرتيها الراسختين، لهما نداء آمر النبرة، فيها ثبات لدن، بقوته الخاصة، وتحديه، بمطالبته الخاصة التي لا يمكن أن تهدر.

يدها الأخرى، بأصابع طويلة عظمية، تمسك بقماش الطرحة الرقيق على صفحة وجهها. عينان تنظران إليه، موجتين هادئتين، من وراء كل الزمن.

قدماها الحافيتان لا يكاد يند صوت عن وقعهما الرخص، على البلاط الممسوح في الطرقة، وفي يدها الشاي، موجته الصغيرة وراء الصفاف الشفافة تهتز على قاعدة سميكة مدورة من الزجاج.

وهو يرد سماء الليل بيده، خارج النافذة، كل الوحوش الآن في الخارج، محبوسة. ويهتز مصباح النور العاري لصوت

الاصطفاق المكتوم. هما الآن في سجن جديد مضيء، والعمارة العالية كلها تحتها برج هش من الطوب والإسمنت والبلاط، تصطرع في قفصه العلوي حمامتان.

وهو يضع كوب الشاي على زجاج الكومودينو المصقول الذي يبرق في النور، ويشدها إليه، سلسة، منقادة، لا تكاد تعترض:

ـ لا يا سيدي.. لا يا سيدي..

ويدفعها بجانبه على السرير، وما زالت الملاءة البيضاء المفروشة تشع بوهج النهار.

كانت مع أبيه من قبل. خدمتهم كلهم. وعى لنفسه وهو يراها، كما هي، لم تتغير، الأيام ترتفع وتنحسر وهي نفسها أجيَّه. هذا الوجه البني المحروق، بعينيه المخطوطتين بالكحل الطويل، سوادهما عميق، صموت، ومتسائل، صورة مدفونة بين صفحات الكتاب القديم الذي كان يقلّب رموزه في طفولته، والأنف الأقنى الصخري، ناعماً وحساساً مع ذلك. قالوا أنها كانت عند جده، وكانت أيضاً هناك عند آباء جده، من أيام جده السابع القديم، ذلك الذي جاء، لا يدري أحد من أين، ليستقر هنا، ويشتري الأرض، رملية مالحة هنا، وسوداء غمِقة هناك. جففها، وغطاها بجسده وعرقه، حتى اخضرت بين يديه، وامتدت إلى النيل. لم يبق منها الآن إلا العشرة فدن في حضن الجبل.

وكان يستيقظ في الليل فزعاً يصرخ من حلم، فيرى وجهها،

هـو نفسه، وديعاً ساجياً، في نور مصبـاح الجاز تحمله بيـدها، وتمسح العرق عن جبهته باليد الأخرى، نـور يأتيـه في الظلمـة، بـاهراً كـالنجدة، فينـام ودفـء صدرهـا يطرد الاشباح عنه حتى مجيء النهار.

وفي ليل طفولته كان يعرف أن دم الفراخ المـذبوحـة، والبط، والحمام الصريع قد ينبجس ويرش رخام عتبة البـاب، فلن تعود تجري وتنق وتلقط الحب في الحوش، تحت الزير، كان يعرف أن القطة التي يجدها في الصبح مقلوبة على ظهرها، منتفخة، في تراب الشارع، لن تعود لتموء، وتسحره، قبل أن ينام. وكـان يخاف أن يموت أبوه، ويخاف أن يأتوا ليرفعـوا إخوتـه من فوق الـتراب، لا يتحـركون، فـلا يعودون ليلعبـوا معه أبـداً. ثم ينسى ذلـك كله سريعـاً. وكان يعـرف أيضـاً أن أجيّـة لن تمـوت، لا تمـوت. ولا ينسى. كـان في دفينة حسـه مكان لا نسيـان فيه، فيـه أمن معتم صاف وراحة نهائية، كأنه يلعب وحده تحت السريـر في مكان لا يصل إليه غريب.

سـاقاهـا عمـودان من حجـر أسمـر دافيء، منحـوتتـان. وفي الحجـر الوثـير شرايين دقيقـة زرقاء، نبضهـا يرتعش، لا يكـاد، تحت يـديـه. في أصـابعـه حنـان ملهـوف، وشفتـاه تتمـرغـان في اللدونة المتماسكة، ربوات ترتفع إلى غيـطان الجسد الممتـدة حتى الأفق. ويـده تـدور بـالخصر الصغـير المضيم، تحت القميص السـاتان الأخضر اليـانع، تحـدس هيكل الأضـلاع القويـة تحت النعومة. الخضرة في نسيج القماش المـرفوع عـلى صدرهـا، ينبثق

منها النوار والأزهار، في خطوط متقـاربة، ومستـأنسة، وشـامخة، وعصيـة. عيناه غـارقتان في أمـواج الـزرع، حتى مـدى البصر. والهـواء يحمل إليـه رائحة المـاء الذي يجـري تحت هذه الأرض، رائحة تراب مرويّ، حريفة، ومنعشة.

وفي كشف سريع خاطف تتبدى له امتدادات عارية، ملساء، عـلى الجنين، يحتضنهـا. بل يحتضن جـانبي العـالم كله. العـالم راقد بين ذراعيه اللتين تضـمان كنزاً شـاسعاً مستحيـلاً، برُبـواته ووهداته الطرية. بـين ذراعيه صحـراوات مقفرة خـاوية، لينـة، ومشـدودة، ومتموجـة، فـوق صخـور العـظام، مـلاستهـا تحت أصابعه، ذرات دقيقة مصحونة جففتها وسحقتها شمسُ رغبةٍ لا تنطفىء، وليال ساطعة لا نهاية لها، من الانتظار والوحشة.

وهو يشق القميص اللامع الساتان، بعنف.

ويـده ترتفـع إلى الجرح المشقق المتشعب الخـطوط. عنكبوت مدموغ بخيوطه المتفرعة السوداء، مكوية. عروق حجرية غـائرة في اللدونة المدورة السمراء.

كـانت الصرخات الثـاقبـة تنـوح في خـواء السـماء، متتـاليـة طـويلة، تنادي وتستنجـد، والهواء قـد خف فجـأة، وتخلخـل. والأصـداء تـتردد، وتتضخـم، بـين الشـوارع الضيقـة وجـدران الحجـر والـطين القـديم. الليـل كله يتـدفق وينـزف في هـذه الصرخات، حاشداً بنذيـر غامض يـدق على أبـواب القلب. ثم جاء الصمت، وسقط كاملاً، مسدوداً. حتى لقد كان يسمـع له

صوتاً، في مجرى دمائه، في موج مسارها الذي لا يتوقف.

وكانوا قد خرجوا من البيت، وراءه، على خطوتين منه، أولاد أعمامه، تاوفيلس، وجيصر، ومينا، خطواتهم تتباعد وتتقارب، وعلى أكتافهم البنادق في العتمة، جامدين لا يهتزون في مسيرتهم، بإرادةٍ لم يعد بوسع شيء أن يوقفها. ليس في وجوههم إلا الجفاف.

كان الخبر قد جاءهم في أول الليل: أسرعْ، أجية سقطت مصابة في الغيط. وصرخت النساء، ثم صمتن. قالوا إنها بخير، ولكن حسه أنذره أنهم يدارون عنه، قالوا جريحة فقط وإن لم تستطع العودة للبيت، ولكن حسه أنذره أن الجراح لم تعد من تلك التي يُستدعي لها الطبيب، قالوا جاءتها النداهة وطلبت ماء، أو الذئاب، لا ندري، أو لعلهم عربان الجبل، ووثبت عليها، في عودتها إلى الخص، في آخر العشرة فِدْن، ولكن حسه أنذره أنه هو الذي اغتالها، وأسقطها، قالت له في الصبح أنها ستقضي اليوم في الغيط، وتزور أهلها، وتسأل عنهم، عيب يا خوي أن تمر السنة من العيد للعيد ولا نحمل لهم هدية، هؤلاء ناسنا وأقرباؤنا، والحريم ليس بوسعها أن تأتي إلينا هنا في البلد، حرام، وأنا أشتاق إلى مجلسهم والسؤال عنهم، أما الأولاد فيقضون اليوم عند أخوالهم، والأكل جاهز، والعيش طري، خَبَزْنا البارحة، ولن أغيب عن البيت إلا سحابة اليوم، وليس للمرأة أن تغيب عن زوجها، صحيح، ولكنها سحابة يوم وأعود. ولم أكن راضياً، كنت أحس النذير، لكني

سكت، سكت، في جبن، كان سكوتي عن خوف أيضاً، وتعلل بأكاذيب هشة، أعرف في صميمي أنها أكاذيب هشة، مهما بدت مقْنِعة: ليس هناك من بأس، هذه العصابات قد انقطعت عن الإغارة على العمار منذ زمن بعيد، وانصلح حالها، والذئاب؟ أين الذئاب؟ لم يعد في الجبل ذئاب تخيف أحداً، وهم هناك قد قطعوا دابرها، ويستطيعون القضاء عليها بضربة فأس واحدة، أو ضربة من شمروخ، وها هي ذي الآن قد سقطت، هل ماتت؟ ولم تجد نجدة؟ لم أكن هناك، كانت وحدها.

ـ أجيَّة.. أجيَّة..

لم يرد عليه أحد.

كانت أجسام الفوانيس واقفة، خضراء صدئة ممشوقة في الليل، تُقبل عليهم وهم يسيرون في الشوارع المتعرجة، تلقى النور على بيوت الخشب البغدادي، على النوافذ المصنوعة من ضلفة واحدة، مصمتة ومشققة، على عروق التبن وآثار خطوط الأصابع البارزة في الجدران الطينية، على أكوام التراب وريش الطيور ونفاياتها الجافة، على الأوراق القديمة الساقطة على الأرض لا تتحرك، كأنما لا وزن لها.

كانوا قد تركوا حدود البلد. وكانوا يشقون الغيطان بين عيدان الذرة الطويلة الخشنة التي يهب عليها هواء الليل فيسقط عنها حفيف مثقل بالتراب، وكان صوت المياه يأتيهم من الظلام، تنسرب وتخرخر في القنوات الضيقة الموحلة، شحيحة، صوت أنفاس صعبة في صدر عظمي شيخ، ولكنه عنيد.

كيف يمكن أن أتركها؟ في دمي هي، في عظامي، مجدولة بنسيج لحمي، التراب الذي في يديها عالق بجدران قلبي. وجهي لا يعرف له مأوى إلا على فخذيها، وتحت ثدييها. هناك، هناك فقط، على أرض لحمها الدمشة بيتي، في تلك الخصوبة الكثيفة الزهمة. هناك تسقط عني مخاوفي وعذاباتي، وأجد راحتي وأمني. وأجد عذابات أخرى في راحتي، ومخاوف أخرى في أمني. هذا كل مالي من راحة وأمان.

لنسج القميص وهو ينشقّ في السكوت المطبق صوتٌ كنفث الفحيح المفاجىء.

وهو يدير وجهها إليه، وقد سقطت الطرحة من على السرير، وتموجت وهي تتطاير إلى الأرض ببطء مفروشة تغطي جانب الشبشب المقدد المشقق الجلد على الكليم.

وندى من العرق الخفيف، يتفصد قطرات دقيقة، دقيقة، في زرقة النور البيضاء، يكشف عن منابت شعرها الغني الأثيث على الجبهة المدورة السمراء. وينهمر شعرها، في حريته الجديدة، أمواجاً وفيرة سوداء، على ملاءة السرير.

وهو يرفع وجهها النقي من على السرير، ويديره إليه ببطء، وهي لا تقاومه، طيعة، عيناها مفتوحتان. ويده ترتفع إلى الخد الممزق من تحت العينين إلى عظمة الذقن، بجلده المشدود، مجعداً، ضامراً، متقبضاً. شوهته ندوب كالشعيرات. متعرجة. جافة. تسطع بينها، فجأة، مساحات صغيرة نضرة، رائقة بريئة

من كـل شائبـة، في سمرتهـا الحية الغضـة المنعشـة، وسط آثـار أرجل عنكبوت الجراح القديمة التي التأمت على شبكات من نغْل دقيق صلب ومتجمد.

الجدران ساطعة خضراء ملساء.

وهو يغطي خدها براحة يده المشدودة بحركة مفاجئة قـاسية، يحس قلبـه يتقبض من حنـان لا يـطاق، والأنفـاس تنحبس في حلقه، وعيناه، على الرغم منه تغرورقان.

عنـدما خـرجوا من آخـر الغيطان، كـان الرجـال سـاكتـين، جالسين خـارج الخص، أمام المسـاحة الضيقـة التي تتعثر القـدم فيها بالحصى والشقاف، ويختلط فيها الـرمل بـالتراب، حتى تـأتي الأحجار الناتئـة الهشة والصخـور التي ترتفـع إلى صدر الجبـل. ومن خلال فتحة الباب، كانت الفتائل المشتعلة تـدخن في كيزان المصابيح القديمة السـوداء بجدرانها الصـدئة الـدهنية، وتهتز في الجـاز العكر الثقيـل، وتلقى أضواء وظـلالاً متراوحـة لهـا ذيـول وتعرجات على الساحة الرملية.

وكانت لمة النساء متحلقة في الداخل حول بذرة مـوضوعـة في وسـطهـا. مـلابسهن سـوداء، والـطرح سـاقـطة عـلى الأكتـاف العظمية. وكانت تأتيـه من بعيد أصـوات لغط الكلام الحنـون، وثرثرة المواساة والتهوين.

كـانت حمرة النـور تتوهـج له من بعيـد، داخـل الخص، من مصبـاح الجاز الـزجاجي الـوحيد المشرق وسط فتـائـل الكيـزان

الصفيح. بؤرة تتضرج وسط الخلاء تحت الجبل. آخر عيدان الذرة في الغيط، محلولة الشعر، تهتز في حرارة جنازة مظلمة، من غير صراخ. ضلوع الجبل وترائب الصخر المدرَّجة صاعدة، متربصة، متهددة، نحو سماء قائمة الزرقة، قاحلة حادة الجوانب.

هب الرجال من جلستهم المرهقة على الرمل والتراب واقفين عند مقدم الموكب الصغير، وانفرجت حلقة النساء وابتعدن يلتصقن بالحيطان الطينية في داخل الخص الضيق المزدحم بأقفاص وبلاليص وشيلان وحزم الحطب وأقراص الجلة الجافة وسلال البصل والقدور المدورة السوداء. طيور ليلية داكنة تهرب إلى الجدران، وأجنحتها ترفرف وتصطفق، أصواتها تهبط إلى صمت قلق، وعيونها لامعة، بعد آخر دفقات الزقزقة والنقيق.

كانت عيناها واسعتين، سوداوين، في النور المحمر، بهما نظرة ثابتة حارة. وكانت ساقطة، في هدوء كأنه الراحة، على بطانية في لون البن المحروق، مطوية فوق الحصيرة الرثة. وكانت تخفي نصف وجهها بالشال الأزرق الداكن الزرقة الذي ينتهي بشراريب مليئة دسمة بخيوط الحرير، تسقط على صدرها. انحنى، وأزاح الشال. كان الدم المغسول بمياه عكرة قد بقيت منه آثار باهتة مختلطة بخيوط متقطعة من التراب، على جانب الوجه الصافي. كان أنفها الأشم متوتراً، وشفتاها الرقيقتان لونها أبيض في النور، مزمومتين على سر لن تبوحا به أبداً، وفستانها الأسود ممزق، منهوش، وقد تصلبت مزق النسيج

بالدم المتخثر اليابس. تتخايل من بينها أطراف مشعثة من قميصها اللامع ولمحات ندوب جراح طويلة مشروخة في اللحم المكدوم الأسمر الغض، على الصدر الناهد. وقد نفرت على ربوته تورمات زرقاء مفاجئة، مشقوقة في وسطها بخطوط الحمرة الداكنة.

كانوا قد تربصوا خلف الخص، وسقطوا عليها، على هذا الحصير. كانوا ثلاثة، أو أكثر. وكان النخل، في رأس الغيط، تحت الجبل، هو الشاهد الوحيد. كان المغرب أحمر، يزرقّ وينطفىء، ويتهدم وراء الصخور القليلة الارتفاع.

كانت الأذرع قد أحاطت بها، كثيرة، وثيقة صلبة، كالكلابات، وسقطت تحت هجمة السيقان. كانوا قد أسندوا بنادقهم إلى الحائط. وتمزقت تحت اندفاع صخري وحار. هل صرخت؟ أم كانت غائبة، نعم، وراضية.

كانت قد انقضّت مرة واحدة، متزاحمة بأجسامها القضيفة القوية. لم تكن تنبح، بل كان لأنفاسها كرير عميق خشن يتردد بين جنبات الصدر الأجوف وعيونها شعلات صلبة. كانت تدور حولها، وفوقها، تعانقها بسيقان مستدقة مشعثة الشعر، تحاصرها، وتنفذ إليها، وتفترش لحمها. كانت المخالب تخمش الأرض الطينية، تحفرها، في احتكاك له قشعريرة. وكانت تحس انسحاب المخالب، حادة باردة، على خدها وصدرها، صاعدة هابطة، تترك وراءها شبكة من حفر نارية دقيقة. كانت الأيدي

المتوترة المنهومة قد كشطت الجلد في خطوط متقاطعة، والأنياب الطويلة العاجية المبلولة تنزل مرة واحدة، وتغوص، والشدقان مسحوبان إلى الوراء، واللهاث الجاف يملأ هواء الخص برائحة الذئاب التي لا تطاق.

كان في الخص، في حرارة الليل، نفث ثقيل كأنه من رائحة عجين مكمور تحت البطاطين الثقيلة. رائحة أتته من ليالي طفولته، عندما كان يستيقظ فجأة دون سبب، وينادي: أمّه، أمّه.. وهي تعجن في صمت الليل، وصوت العجين الطري يصطفق. وكانت تنوم تغطي القصعة بالملاءات النظيفة، والبطاطين، ليتخمر حتى الصباح. وتأتي إليه، تسقيه، وتلف حوله الغطاء، وهو يرى في نور حلم مهتز وجهها الأسمر الساكن الصبور.

عيناها شاخصتان إليه، ورأسها على البطانية، وشعرها قد تشعث منه خصلة سقطت على الحصيرة الصفراء، منابت الشعر مبلولة على جبينها المدور، والجرح يجري على خدها بأطرافه الرفيعة الكثيرة، ووجهها ما زال أزرق متورماً مرضوضاً، وشرايين حمراء مشرجة قد نزت على صفحة الجلد المغسولة.

العذراء وقد سقطت. أين كان ابنها؟

ـ قدر ومكتوب، ما باليد حيلة.

ـ كيف؟ كيف أمكن أن يحدث؟

ـ من يصدق؟

ـ كانت وحدها يا اختي. يا عيني.

ـ أمر الله ومشيئته.
ـ ما استطاعت أن تفعل شيئاً.
يا اختي.. يا ضناي.
ـ وماذا يجدي الكلام الآن؟ مشيئة الله.
ـ كيف جاءت هنا وحدها؟
ـ أختنا وحبيبتنا، كنا معها، قلبنا معها.
ـ كيف حدث إذن؟ كيف أمكن أن يحدث؟
ـ أجيّه.. أجيّه..!

وهو يحتضنها بقوة، بين ذراعيه، في شبق الحنان، ويدفع وجهها إلى صدره، يخفي جرحها. شفتاها تحت ذراعه، تتلمسان صدره بقبلات صغيرة سريعة، والنور الأزرق الباهر كأنه يصفّر في أذنيه.

كانت المرأة قد نادت عليها، في أول الليل، وكان صوتها شاباً، ومبحوحاً. واقتربت من الخص. كان جلباب المرأة يسقط على هيكلها الخاسف الضاوي، أسود يختلط بظلمة الغيط من ورائها، وفي يدها عود حطب. وكانت وراءها ثلاث عنزات تثغو، وترفع رأسها إلى الجبل. كانت تسحب طرف جلبابها على الرمل، فيترك خطاً عريضاً. وكان الجبل رمادياً، وأعواد الذرة صامتة، متزاحمة ومتلاصقة، شاخصة في نقش مشعث حجري، عليه رواسب من التراب.

ومدت المرأة إليها يدها، في حركة دعاء واسترحام.
ـ عطشانة يا ستي.

وعندما اقتربت منها، كان وجهها ناحلاً، تحت العصابة العريضة الداكنة الحمرة التي تدور بجبهتها، وكانت شفتاها ملحيتين موشومتين بالأخضر، والحلقة الصفراء الكبيرة معلقة بأنفها. وكانت وسوسة الحلي الصفيح على صدرها، في الخلاء، مكتومة تحت الطرحة الثقيلة.

ـ عطشانة يا ستي، اسقيني لله.

بصوت لان له قلبها فجأة.

كيف نسيت؟ كيف تركتها تقترب؟ كانت الإمارات كلها هناك، وكم من مرة سمعت الحكايات، في كل القيعان والبيوت؟

كان في عينيها تضرع القطة، وفي مشيتها المتمهلة على الرمل إنسياب ناعم، وكان كل شيء ساكناً، لكنها تحس مع ذلك نبض الترقب حولها، ولهفة الترصد ولا تملك أن تغير شيئاً.

عادت إلى الداخل، ورفعت جالوص الطين الذي يغطي البلاص، وغمست الكوز في مرآة الماء المصقولة. كان في بقبقة الماء وهو يلين، ويتكسر ويملأ الكوز، ما يريح الصدر، ويجعلها كأنها تبتسم، مسحورة. وأخرجت الكوز مائلاً من الفوهة المدورة، وهو يشر بالماء البارد، واستدارت لتسقي المرأة.

احتضنتها النداهة، فجأة، وأحاطت بها، وسقط الكوز يرتطم بالأرض الطينية الصلبة، وينسكب على الحصير، لا يهتم به أحد، ووجدت نفسها في قبضة عناق خانق، رائحة الجلباب

الأسـود المترب تكتم نفسهـا، وهيكل المـرأة الجـاف يضغط عـلى جسمها، والحلي الصفيـح مغروزة في صـدرها، تؤلمهـا. واندلعت النار في وجهها. كانت المرأة تقبلهـا بشفتين من الشـوك، قبلات حادة لاسعة. ثم انتزعت النسيج من على صدرها ومالت تقبلهـا في خشخشـة الثيـاب السـوداء الثقيلة التي التفّتْ بهـا من كـل جـانب، قبلات كـاوية متـلاحقة. وقـد انبثقت نافـورة من الألم تتفجـر على ثـديها، وتـترك آثاراً رفيعـة ثاقبـة تنشعب كـالـبرق. وفتحت فمها تصرخ، فاغرة. هل صدر عنها صوت؟ هل حدث شيء؟ كان كل شيء حولها مقفراً، موحشاً، وليس هناك غيرها. وقد سقطت على الحصير. كانت تسمع الرجال يتنـادون ويجرون من بعيـد. قـادمـين إليهـا بنجـدة فـات أوانها، وكـانت النسـاء تصرخ. لم تكن هناك أعرابية، ولا معيز، لا شيء، إلا عـارها، جراح كأغصان النباتات الشوكية التي تنبث بين أحراش الحَلْفاء، وعلى حواف الترع المشققة من الجفـاف. حزمـة كاويـة بها عقـد والتواءات، مدببـة الأطراف، متقـاطعة ومتـداخلة على صـدرها وخدها.

وهو يغطيهـا بجسمه، كأنه يحميها من عريها، وعارها. يتلقى عنها، بعظامه وبعضلاته الموجعة، ثقل النور، في سجن الجدران اللامعة، ويدرأ عنها غيبوبة. يترك لها صدره تغمض عليه عينيها الجريحتين، وتلصق به خدها المحفور، وصدرها المنتهك. يدخل معها في منطقة حميمة خـاصة بهـما معاً، مغـارة تتقطر فيهـا أشعة خافتة، في قلب صخر من النور الرازح.

قديستي المستباحة. كيف امتُهِنتِ؟ كيف امتُهِنّا؟

كان يقظاً في ظلام الغرفة والنور ينضح على خشب النافذة، وهي تنام إلى جانبه، وجهها فيه سلام، وفمها مفتوح في حلم منعزل لا صلة له به.

وكانت أطرافه كلها متوترة في قلق متوفز كهربي، ترتعش له الأعصاب، دون أن يملك أن يردها. تفجر العويل يملأ سماء البلدة عليه، في صراخ ملحاح ممتلىء الأحشاء بالخوف، تتردد له أصداء ثقيلة، بِرَكٌ من الصوت، معدنية، تنداح من جوف جرس ضخم، وتتسع على صفحة الليل، تحمل تهديداً يحيط بكل شيء. وصمتت البلدة كلها، حبست أنفاسها، وسمع وشوشة النخيل في حوش الكنيسة، تحت.

وتقلبت أجيّة وتمتمت في نومها:

ـ من مات؟

وفي عتمة الغرفة رأى على السقف الأبيض صرصاراً داكن اللون، تتلاحق أرجله الرفيعة القوية، وهو يسير، في عمى، إلى وجهة مقصودة.

وانطلقت صفارة القطار من المحطة، متصلة، متطاولة، تجلجل في نَفَس واحد لا ينتهي، تبشر بالخلاص، والعجلات تقرقع منطلقة إلى بعيد، فوق الجسر، حتى تقلَّبَ الرعد الحديدي الليلي وانتهى إلى مطر خافت يتقاطر في فراغ الحقول.

وعاد الصمت موحشاً، يملأ السماء، تنفتح له في النفس فجوة

شـاسعة بـلا قـرار. وهـو وحـده، بـإزاء الصمت، يحس صَهْـد الحرارة في وجهه، جسمه ينتفض بالعرق، وأطرافه ترتجف.

يا حبي، كيف امتهنوك؟ كيف امتُهِنتِ؟ كيف سقطت؟

أبكي، كالطفل.

كيف أبرأ؟ وتبرأين؟ بكاء السقوط يا حبي، والامتهان. كيف تجف الدموع؟

وفي الغـد لم يكن يجـرؤ عـلى أن ينـظر إلى عيـون الـرجـال. سقطت، لكنهـا طاهرة. مغتصبة، بل داعرة. شهيدة، وضحية.

ـ أجيّة.. أجيّة..

كانت عيون الرجال متباعدة، لا تبوح بشيء. كأنهم يخجلون مما سوف يرون فيها، وكان صوته هادئاً، محبوسـاً. كان الـرجال قد انطوى كلٌ إلى وحدة داخلية. عزفت النفوس عن الالتقاء.

منذ متى جاء هذا البرد؟ وتفككت الظلمة؟ كـان الرجـال قد ناموا عـلى الحصير، وبنـادقهم إلى جوارهم عـلى الأرض. التفوا بالجلاليب والشيلان والبطاطـين. في الخص الطيني الضيق كثـافة النوم، وأصوات الأنفـاس الثقيلة المكتومـة، لم يطلقهـا النوم من الحبس.

وعندما مد أطرافه أحس بالحياة تجري من جديد.

من يصدق أنه نام أيضاً، واستراح.

وعندما خرج، وتركهم نائمين، تدْمَع يودعهم في حنان لا ريّ له، كانت حقول الذرة في النور الأول للنهار، مبلولة من الندى،

ونـواصيها مثقلة محنيـة بالمـاء، لا تكاد تهـتز في رعشـة الـبرد التي سرعان ما انجابت. كان يحس الرمل يتصلب تحت قدميه ويجف من دكنة الطل المخضلة. تطايرت شبـورة الفجر سريعـاً، لم تبق منها إلا نفثات خفيفة بيضاء تتلوى وتذوب حول عيدان الذرة.

كان ذهنه خاوياً، صافياً، وقدماه تسيران به، وحـدهما، بـين الحصى والحجر، إلى طريق الجبل.

والسماء مشدودة، سخنة، والشمس قاسية في عينيه.

وتحت أظافره حبات رمل دقيق مغروز. وهو يضع وجهه عـلى خدها، يحس شقوقه الجافة، ونضرته، وقسوته.

أنت تقتلينني.

البرج القديم

وهو ينحني بوجهه على المدفأة، يرعى نارها، هبات الدخان الخفيفة ترتفع إليه، تصدم عينيه فجأة، وجفناه يضيقان، ولا يعود أمامه إلا شق تلعب ألسنة النيران الصغيرة فيه، تتولد، وتختفي. ويحس الدموع تتقطر في ركني عينيه. ثم يطير الهواء بالدخان بعيداً عنه، إلى ناحية الباب، ولا تبقى إلا رائحة الجاز الحريف على قطع الخشب التي غطاها تراب الاحتراق الرقيق وانهارت أطرافها وتفحمت في ألياف طولية هشة ما زالت متماسكة بين قطع الفحم المبلولة، رطيبة السواد، معدنية اللمعان، مرصوصة، ثمينة على التراب الضارب إلى البياض، الشديد النعومة، تتطاير منه على وجهه هبوات تتشتت للفور، كلما نفخ في النار.

كان جسم المدفأة الفخار، المدور، المحبب بين يديه، ما يزال بارداً.

مسح بظهر يده الهباء الناعم الماسخ الطعم الذي علق بشفتيه، ودعك يديه إحداهما بالأخرى، وهو يرجف رجفات سريعة خاطفة، ونظر إلى الباب الخشبي القديم، مفتوحاً، مائلاً

في عتمة المساء على العتبة الداكنة ببقع مياه يتشربها التراب الشبعان. نشق بعمق، يملأ صدره الذي أوشك أن ينضب. وعبّ من هواء أمشير اللاذع البرد، وهو يأتيه فتضطرب نيران المدفأة، وتَمُوج أطراف شجرة الجميز العجوز على الباب، وترتطم أغصانها المثقلة. نفثات الدخان الكثيف تتلاطم تحت فمه - نبيذاً مراً ثقيل المذاق - وتكاد تخنق اندفاعات النار التي تنبثق مع ذلك فجأة، هنا وهناك، رشيقة وحرة، من حيث لا يتوقع انفلاتها، من تحت مخابىء الفحم والخشب.

أمشير هذه السنة جاء مبكراً، بزعابيبه وترابه وهوائه القارص. رفع رأسه إلى سقف الحوش المفتوح على السماء. على الله تكون الجاموسة دفيانة في الزريبة. أمر عليها لما تمسك النار، وتحمى.

سماء الليل جدار من الرصاص مقلوب، وفي فتحاته الزرقاء الباهتة بين سواد السحاب، أجنحة الحدادي التي لم تأو بعد إلى أكنانها، امتدادات لا حراك بها، مبسوطة الريش، منحوتة، فرعونية، بدائية، ساذجة ولكنها ما زالت مهدِدّة، لها سطوة.

في ركبتيه وسمانتي ساقيه خدر طفيف من جلسته، مقعياً غير مستقر على الأرض، أمام المدفأة وأنفاسه متداركة لكنه وحده مع متعة خفيفة رقيقة، في العتمة الشاتية، واضطراب ريح أول المساء حواليه. يحس عظام صدره على رقتها غضة فتية تقبل التحدي، وجسمه الطويل المنحني، على ما يثقله من تعب طول النهار، لدناً مرناً تحت الجلابية الكستور الثقيلة، والبرد يلسع ما

بين ساقيه فجأة ويهرب سريعاً. وقدماه تحتكان بالأرض يحس التراب الخفيف على جانبيهما، وأصابعه تغوص في جلد الشبشب العتيق النحيل.

من ورائه صرخة مفاجئة من الفراخ، نقيقاً ثاقباً قصيراً مفزعاً، وفي لفتته للوراء صمتت الفراخ مرة واحدة، كما صرخت. لماذا اهتاجت هذه الفراخ فجأة؟ قلة عقل؟ شيء دخل الزريبة من بين أيدينا؟ لا يا شيخ.. والله ممكن، يا داهية لا تكون العرسة نطت من ع الحيط، أو يمكن فار من الفيران الجبلي الهربانة من الكوم الغربي، تعملها وحياة العدرا. تنسرق في المسا. من غير حس، وتعقر الكتاكيت، لا يا شيخ فال الله ولا فالك. قلة عقل منك أنت.. كان زمان الكفر كله صحي من زياط الفراخ والوز، والجاموسة نعّرت وحسها ملا البلد.

خيط من النور الأصفر المحمر يطعن العتمة طعنة مهتزة ولكن مثابرة متصلة، من باب المندرة الموارب، ثم يسقط على أرض المدخل، ويرتفع على جدار الطوب الأسود اليابس، وينحرف، ويتعرج، وينشعب عن زوايا حادة رخيصة متشابكة على عروق الخشب، المتفرعة بأعواد مشعثة عظمية الجفاف، على أشلاء أغصان شجرة الجميز المقطوعة للوقيد، ميتة، متساقطة الورق تخشخش في الهواء البارد، وعلى أعمدة صغيرة مهددة بالسقوط من أقراص الجلة، تتخايل كلها في شبه العتمة، تحت سماء تسطع زرقتها الأخيرة، خالية الآن، بين أكوام السحاب التي

تتقلب وتنساب، بسرعة وصمت، على السطوح الواطئة الناتئة الأطراف.

ثم لم يعد هنا شيء إلا هذا الجهد الممتع المستغرق، شفتاه وفمه هما كل جسمه، وهو ينفخ بانتظام وحذق، ويداري بيديه على النار، من هنا وهناك، كأنها عشيقته، في خفاء، يحميها من هبات ريح أمشير المفاجئة، وفحماتها تحمر، ثم تبيض، في اتقاد ساطع، والخشب يقرقع في احتراق بهيج، ورائحة الجاز قد اختفت أو كادت وحلت محلها رائحة سخونة الرماد النظيف.

كان ينحدر الآن من ذروة اكتمال ما، وتحقق فات وأعقبه تهدل وراحة واسترخاء متعب فيه بقية من توتر قليل، والله لا راحة في ليل أو نهار، نشقى طول النهار في دفاتر الجمعية، وإيصالات الفلاحين وحسابات التقاوي ورصيد السلفة على المحصول وعهدة السولار والجرارات وأقساط الإصلاح وأوراق المهندس الزراعي، والميكانيكية، وخصومات العجز والكيماوي والمبيدات، وفوق هذا كله وقبل هذا كله طلبات البهوات من العيلة الكبيرة، كله على دماغي أنا، ومن ورائنا وأمامنا وحوالينا الباشكاتب ورئيس الجمعية. أنا عارف، عارف أن الدفاتر والأوراق فيها لعب، لكن أولاد الكلب لا يتركون الدفاتر على بعض معي أبداً، دائماً معهم بحجة المراجعة وطلبات مصر، وتقفل عليها الخزانة، أنت عليك التقييد والجمع والطرح والنقل من إيصالات وفواتير ولا شيء آخر. فاهم؟ صحيح، ليس هناك ورقة بإمضائي، هو أنا مجنون؟ ليس هذا شغلي ولا مسؤوليتي

وأنـا مالي يـا عـم. آه ياني. صرخـة ثاقبـة، لا عاقلة، قصـيرة، نهائية. أنة من بعيد، خدشت طـرف وعيه، لحـظة، وانقطعت. حمـامة في الـبرج سقـطت عليهـا حـدأة. فـرخـة انقضت عليهـا عرسة. طفلة، فوق، أمام قسوة العالم الجديد، بقبضته الخشنة. صرخت صرختهـا قبل أن تمـوت. لم يسعفها شيء. لم ينجـدهـا أحد. صرخت، أطلقت في ليل اللامبالاة آخـر صيحة حيـاتها. حيـاتها. حـرام، حرام وحيـاة العدرا، يقـولون البـاشكاتب قنى عشرين فداناً، في بحـري بعد البحـر، الجربـوع الحرامي، أبـو إعـداديــة، من أين جــاءت الفــدادين العشرون؟ من السفّ والنهب، من الضحـك على دقن الإصـلاح، من دم الفلاحـين، ولاد الكلب، هـم أيضـاً ساكتـين، مغفلين، قال كتبـوا عـرايض قـال، ما الـذي يسكتهم؟ قال كـذب مسوى أحسن من صـدق منعكش، حسـابات سليمـة مية في الميـة، وأنـا أيضـاً حمـار، لا أعـرف أبـداً أن أضـع يـدي عــلى شيء. عصـابـة الله يخـرب بيــوتهم. . ويمكن غـير صحيــح؟ بعض الـظن إثم كـما يقـول إخواننا، ولكن أهناك دخان من غير نار؟ حتى في الليل لا يرحمنا الهَمّ. الله يسامحك يا ابا إرساني، أما كان يخرج من يدك أن توفر لنفسك، من أيام العز المتلتل، ثلاثة أربعة فدن، أو خمسة، بدل القيراطين العمى نطفح الكوتة لما نتحصل على إيجارها، وتترك لي كبشة أولاد وبنات أخوات أو كّلهم وأعـلّمهـم وأكسيهم، يا خي كفـاية غلب المـدارس، وطلبات المـدارس، وسنتين ثـلاثة وأحمـل هم شوار البنات. وأنـت يابا إرسـاني: ربع الكـونياك كـل ليلتين

تلاتة، والمزة، البيض أبو ليمون، والكبدة وجوز الحمام، وعلبة البلمونت صحيحة.

لم يسمع نفسه وهو يضحك ضحكة خافتة مستمتعة، في غير سخط، بل بشيء من الإعجاب: هذه العظمة الناشفة القديمة، لا تنهد أبداً. أوشك على الثمانين، بل لا بد تجاوزها، وما زال أيضاً عفياً لا يدير رأسه ربع الكونياك ولو شربه وحده، وذهنه أصفى من قلم حسابات بكله وكليله، وحياة ستنا العدرا، يغلب بلد آبا إرساني، وعينه كالصقر، لا يفلت منها شيء.

همَّ واقفاً فجأة، وقد صمت ذهنه مرة واحدة. لكأنه نسي، أو لعله لم يوجد أبداً - همّ ولادة البنت، ومصاريفها، وخوف التهديد والقلق الذي يجفف قلبه. لكأنه عاد بريئاً، حراً، نقياً. خمس سنوات إلى الوراء، هل هي خمسة؟ أبداً، لن يغتسل أبداً من هذا التوجس، لن يخلص أبداً من هذه المواجهة مع زحمة المخاوف وضرورة الهجوم معاً. كأنه هناك وراء خمس سنين، وهو مع ذلك هنا، والآن، قبل أن يتزوج حنونة، وتلد، ثلاث مرات، بنت كل مرة. وتموت البنت. كل مرة، قبل الأسبوع. كأن يداً مسحت من ذهنه هذه السنوات كلها، بل سنوات العمر كله، كأنه لم تكن هناك سنوات مرت أو تمر، ثم انفكت حبسة ذهنه، وعادت الأصوات تملأه من جديد. وهز رأسه في دهشةٍ من نفسه نسيها للفور، وهو ينظر إلى الحائط المسدود في الدور الثاني، ويرتقي درجات السلم الترابية المتحدرة إلى الغرفة العلوية الكبيرة أمام البسطة على سقف الزريبة، مقفلة اتقاء

للبرد، شباكها المطل على الزقاق محكم السد بالخرق المحشورة بين الحائط وضلفة الخشب المتأرجحة أبداً، المسنودة بالعلب الصفيح والكراكيب والهدوم والحقاق، وزجاجة الزيت الراكد المدهنة، اللزجة الفوهة، برواسبه البيضاء الثقيلة في قعر الزجاجة تملأها حنونة على تفلها ولا تفرغها أبداً، كأنها تخشى، لو نظفتها، نضوبَ البركة. وجنبها زجاجات الخل والسبرتو معاً، كيف تميز بينها؟ كل منها فوهتها سوداء محشوة بقطعة ملفوفة مدكوكة من ورق الجرنال، الداكن الاحمرار. وقطعة المرآة المكسورة والفلاية الخشب وأنصاف الأمشاط البلاستيك والقمع الصفيح الصدىء. وقلبه يبتلّ من جديد من الشوق للدفء الذي طالما عرفه في هذه الغرفة، وتغرق أرضه أمواج التوق لجنون الانطلاق الحسي العارم، وأمواج الخوف أيضاً من مضض القلق والانتظار والانطفاء، وطعم التراب الكاسد الثقيل، والعجز أمام جفاف الحياة الصغيرة التي تذبل وتركد وتلتوي هامدة في الأقمطة واللفائف، كل مرة، يعود إليها يحملها، على ذراعيه، إلى تحت، إلى النعش الخشبي الصغير الأسود بصلبانه البيضاء.. يا رب.. يا رب.. ارحمها هذه المرة يا رب.. ارحمنا، كيريا لايسون.. يا رب ارحم.. ارحمنا.. ارحمنا.. دستة شمع نذر عليّ يا ستنا العدرا وآدي ندرك يا ست.. يا أم النور..

ـ احم.. يا ساتر.. يا ساتر.

ودقات عصا ثقيلة على تراب الأرض، من الخارج، تقترب

مع الصوت الأجش المجروح.

وفي نفس الوقت هرولة نرجس الصغيرة على السلالم، والباب ينفتح ونـور مصباح الجـاز «الشيـخ عـلي»، يثب، ويتـطاول، وينخسف فجأة يكاد ينطفيء في يدهـا، وأخته تهتف بـه هتفات خافتة ملهوفة، قدماهـا الحافيتـان، السوداوان بعـظامهما الـرقيقة الصغيرة، على التراب.

ـ آبا فانوس.. المعلم جورجي.. المعلم جورجي جاي.

وفي نـظرة حنـو تعـرفـه البنت وتـألفـه، وتبتسم لـه عينـاهـا الضيقتان بمكر، وفي صوته قشرة مكسورة من قسوة خادعة:

ـ طب يا بت يا مقصوفة الرقبة، مـالك اتسَرَعْتِ ليه؟ إدخـلي قولي لبنت خالتك حنونة تحضّر العشا. وشـوفي آبا إرسـاني ينزل المندرة يا الله يا بت ياللا اعملي لك همة، وروحي انـدهي البت المديوبة خضرة شو فيها متّاوية في أني داهية، همّي يـا بت جاكي ديب..

مقصوفة الرقبة فـرحانـة لأنها تعرف أن الليلة التي يجيء فيهـا المعلم جورجي سينالها نصيب من الوَفَر، وهو يأتي إليها في جيبـه بكرملة من عند الخواجا شنوده البقال، يدسها في يـدها من وراء ظهرنا، وما زالت البنت تتوثب بالأفراح واللهفـات الطفليـة، في الابتدائي ما زالت، أمـا أخواتهـا الثلاث فقـد انتهت طفولتهن، وهن لا يختلفن عن الفـلاحـين في شيء. وطـافت بـذهنـه آمـال قديمة مألوفـة أن يصبحن كقريبـاتهن في دمنهور، أو إسكنـدرية،

وما زال يراهنّ في مستقبل غامض: في بيت بالماء والنور، زوجات موظفين، رشيقات نظيفات. أخوتهن تخرجوا من الجامعة دكاترة ومهندسين ومدرسين، متى يا رب أرتاح من همومهم جميعاً وأفرغ لحالي ونفسي، لا أعول همّ المدارس والأزواج، والأولاد الذين يخرجون كل يوم على وش الصبح يسيرون للمدرسة في الخطاطبة على أقدامهم، توفيراً للاشتراك، ويعودون كل عصر، عشرة كيلومتر كل يوم صباح مساء، ومع ذلك ربنا يحرسهم، ينجحون بمجاميع.

كانت خضرة تنحني، بجسمها الفارع القوي اللدن، ثم ترتفع قامتها الطويلة من تحت الجلابية السوداء السابغة المتربة، مشقوقة على الصدر، ويبدو من الشق طرف جلابيتها التحتانية، المغسولة الباهتة الزرقة، ولحم صدرها الأسمر المتماسك. وعلى رأسها خرقة القماش المبططة، على الطرحة، ترتفع فوقها الصينية النحاس الواسعة، وعليها ما فضل من العشاء. تهتز الأطباق والأكواب وتنزلق قليلاً على الصينية ولكنها لا ترتطم بعضها بالبعض، بل تثبت في توازن. والظهر النسائي الشامخ، منسرح، متين الأسار، من تحت الجلابية التي تحف أطرافها بالتراب من على القدمين الكبيرتين الحافيتين. وانكشف خشب الطبلية الصغيرة مسوداً رقيقاً، هزيلاً، عظم قديم في تُرْبة، بعد أن أزيح عنها الغطاء المعدني الباذخ الصفرة بنحاسه العريق وبقع السمن اللامعة.

ورجعت خضرة بالصابون أبو ريحة، والطشت عليه الإبريق.

كانت يداه تنعمان برغوة الصابونة النافذة العطرة، وخبط الماء الأسمر ينسرب رقيقاً بارداً، جاءت به البنت، بلا شك من الأنجر الكبير تحت الزير، يُثلج حموةً في يديه ودمائه، ليست من هَبْو الكونياك ولا من حمو ذكر البط، بل هي وهج داخلي يشعل أحشاءه، ويحس معه ذكورته متطلبة، آمرة، متوترة، والبنت تنحني. وصدرها الوثير يتدحرج تحت الجلابية السوداء، ويندفق نهداها من فوق طرف القميص الناصل، ويملآن الشق الطولي الرفيع، في وفرة، وضغط، ويتخذان مرفأ خاصاً واستدارة خاصة، إذ يتضامّان معاً، تحت النور المحمّر، وهي تنحني تصب له الماء، وفي رائحتها يختلط نفح جسدها الحميم بطعم الحليب الطازج، ورائحة الجاموسة ودخان الجلة الدافئة الجديدة، والصابون، والزفَر السمين المطبوخ، في بخاره العبق، كلها نعومة، ومتانة، راسخة أيضاً، كل شيء فيها مدور، محكم اللدونة، ليس فيها ما يكشط الحس أو يهبش بالمخلب والمنقار الحاد، ولا قسوة العينين المفتوحتين الصاحيتين أبداً.

وعندما ذهبت للمرة الأخيرة، وعيناه تتبعان موسيقى الردفين بإيقاعهما الغني، البطيء، المليء، عايز حاجة يا معلم؟ طب تصبحوا على خير، بجي، فتكّوا بعافية.. أحس جسمه يتمطى، بالرغم منه، مهدوداً وملآن، ما زال فيه توتر قليل يخبو، يحث على الراحة لا على التوفز بالقلق والهجوم، وفي رأسه دوار الكونياك الخفيف، وما زال في زجاجة النُص بقية، ولكن عينيه صافيتان، مجلوتان، كل شيء يبدو له محدداً قاطعاً، في

ضوء أسطع قليلاً من المعتاد، أوضح قليلاً من المعتاد، كأنه ينظر من خلال عدسة مقربة جديدة: وجه المعلم جورجي المكتنز المترهل، بجلده المزرق، المنقور بآثار جدري قديم، وعينيه الجاحظتين المبقورتين، من غير نظارة، نيئتين، تدور المقلتان من غير رؤية، وتحسّ أنهما تتبعانك مع ذلك ترصدان كل حركة في داخل نفسك أيضاً، خففت الألفة القديمة بشاعة شكلهما، لا يضع عليهما نظارة سوداء، ولا يريد، لكنهما الليلة تبدوان له كأنهما جديدتان عليه، في اقتحامهما وفجورهما، في بذاءة سافرة، وغريب منه أن يقبلها ـ هذه البذاءة ـ ويسلم بها، مع ذلك، هو والقرية كلها. لا صلة لذلك بأنه عريف الكنيسة وكبير الشماسين فيها ـ وحافظٌ لا تخونه الذاكرة أبداً للخولاجي كله ولألف ترنيمة بالقبطية والعربية معاً ـ وأنه هناك حيث كل شيء كبير وصغير، في الولادة والتنصير والقربان وجبانيوت الخطوبة وإكليل الزفاف وقداس الجناز، في رش الماء المقدس في البيت بعد الموت إراحةً للروح من عناء الانفصال، وعند تفريق الملبّسْ، وشرب المغات، في تسجيل عقود الإيجارات والبيوعات، وبعد جمع القطن، وفي كيل القمح، عند ذبح الوزة وعشار الجاموسة، في لعب الطاولة وعشرة البصرة، وعندما يأتي حكيم المركز أو ضابط النقطة، على السواء. لا. أبداً. هذه البذاءة العارية في عيني الرجل الصخريّتين المسدودتين وفي تلمظ شفتيه الجسيمتين الدهنيتين، في تعليقاته الصريحة المفتوحة ونكاته القبيحة المباشرة اللفظ، إنما هي شيء آخر يحس الجميع براحةٍ إليه وبمتعة خاصة

فيه، كأنها محرَّمة قليلاً ولكنها مسموح بها لأنها أساسية، متعة تفاجىء يديك وصدرك أحياناً وأنت تمسك عجل الجاموس اللباني الغض لتذبحه في العيد، أو عندما تقبض على استدارة امرأتك المليئة المقببة كالعجين الدفء الخمران، تحت غطائه الثقيل، وتغوص في الليل.

كانت النظرة يحسها تثبته في مكانه، وكأنما تثقبه. منذ بضع لحظات بالفعل، أحس العينين الضيقتين العجوزين، يقظتين رغم العشاء الثقيل والكونياك كأنهما متربصتان، وجارحتان أيضاً، من تحت غطاء الحاجبين بشعرهما الأشيب المتنفش الحاد الشوك، وهو يخرج السيجارة من علبة البلمونت، بيديه السمراوين الشفافتين، عظام الأصابع الطويلة لا تهتز، ويمدها له، بصمت وشيء من تقطيب خفيف يعقد الحاجبين الكثين البيضاوين، كأنه يسمح له باقتراف الذنب أمامه، أي ذنب، كل ذنب، الآن فقط، فما كان الولد، مهما كبر، ليجرؤ أن يشعل سيجارة أو حتى يستأذن فيها، ولو بعد العشاء والشرب، إلا أن يأذن له آبا إرساني هذا الإذن غير المباشر، ولو اضطره الأمر، وحَبَك الكيف، تعلل بأية حجة، وخرج يشرب الدخان بعيداً عن نظرة أبيه الحادة.

انعقد الدخان حول مصباح الغاز النيكل الكبير الدائري المبطن، بزجاجته الرائقة الطويلة المستدقة العنق في طول، بعد انفلاتها من قبة الضوء المتفخة حول شعلتها الساطعة. واستند الرجال الثلاثة إلى المخدات، وهناك من فوق، جلبة البنات

والأولاد، ومعهم خضرة بلا شك، في معـركة العشـاء البهيجة. وأخرج الشيخ أقراص الدومينـو من تحت الشلتة، تحت كـوعه. كـانت المدفـأة الفخار في الـركن تتـوقـد بصمت ووهـج، تبعث حرارة تشبع عـظام الرجـال في المندرة المنـيرة المنعزلـة المقفلة على نفـسها، بطن مركب مضيئة في موج النيل الليلي.

ـ والله الدفا عفا يا ولاد.

ـ اي والله . . هابياك . .

ـ دوش . . سمعت يـا سيـدي جـامـوسـة النـاظـر عشرت النهارده . .

ـ إيوه يا معلم . . وبيقولوا بنته كمان . . اتنين وستة . .

ـ تلاتة واحد . . يا راجل اتقي الله . . وبعد هالك بجي . .

ـ تاخذ كاس يا آبا إرساني . . كاس كمان يا معلم جورجي . .

ألقى عليه أبوه نظرة أخرى خاطفة، ضربـة مخلب من صقر، جاف، وهز رأسه بالإيجـاب. وعلى الـطرف الآخر من الشلتـة، كـانت الأصابـع الغليظة المـدربة، معـوجة قليـلاً في اكتـظاظهـا باللحم، تتحسس أقراص الدومينو بسرعة، بين الإبهام والسبابة. وتضعها في مكانها، والذهن الذي ينز بالدهن والذكاء معاً يلتقط الـرقم، ويحسبه، ثم تسحب الأصـابع القـرص التالي، في نفس اللحظة تقريبـاً، وتسنده في الصف الممتـد على الشلتـة المفروشـة فوق الحصيرة. والصف يـستطيل بسرعة، ويعوجّ، ويصنـع زوايا حادة، والحسبة تكبر وتصل إلى نهايتها. وهو يرقب اللعبة وينشق دخـانـه يمـلأ بـه صـدره المـزدحم. كـأس أخـرى، وتغيم عينـاه

قليلاً، وهذا الوضوح القاطع في الأشياء لم يعد يؤذيها. كأس أخرى، ويتمهل الإيقاع الوثير الممتلىء حتى لا تكاد تهتز موسيقى النهدين والردفين الناعمة، ويتعثر ذهنه قليلاً، ويغوص، من غير دفع خارجي، في ردغة مبلولة طيعة. يتوقف جريه في توتر السهم المنطلق المشدود، دون أن يصيب هدفاً. آبا إرساني يضع خاتمة حساب اللعبة، وقد كسبها مرة أخرى، فمهما كانت براعة المعلم جورجي وذكاء أصابعه ودربته المشهود بها في كل بيت، دائماً يكسبه آبا إرساني، ودائماً يعابثه في آخر اللعبة هو انت عايز تكسب كل حاجة يا جورجي يا خويا، فيضحك العريف ضحكته الجشاء، الغليظة، ويلتقط بين شفتيه السوداوين اللامعتين ولسانه حركةَ تلمُّظ كأنما هناك لذاذة متعات أخرى ومكاسب لا علاقة لها بالحساب، وما يزال يضحك ويهتز كرشه المدور في القفطان الحرير من تحت البالطو الصوف، اللهم اجعله خير يا ولاد، الله يجازيك يا آبا إرساني، خير يا سيدي، وانت يا سي فانوس اللي واخد عقلك. . خد يا سيدي، جبت لك ميه مصلية من عند أبونا، بركة من الكنيسة، خد يا خوي كل شيء بإرادته، عقبال ما نأكل ملبس الفرح. . في حياتك إن شاء الله يا معلم جورجي، خد يا خوي. . وفي عزك وعز آبا ارساني يا واد، إيه، حناخد زماننا وزمان غيرنا يا جورجي بس ربنا يخليهم، ويخلي لها أبوها، والله زمان يا ولاد، في صحتكم. . تتربى في عزك يا سي فانوس، اللي جاب لك يخليلك. . في حياتك يا آبا ارساني.

والأصابع الطويلة العجوز تقبض على الكأس المشعشع بالكونياك الأصهب، بلا اهتزاز، أظافرها القوية الصلبة بيضاء مصفرة من الدخان. عاج قديم في النور الأحمر.

ماذا نسميها؟ يا رب احفظها يا رب. ابقِ على حياتها. هذه المرة. كم مرة تولد وتموت؟ أوشك الأسبوع أن ينقضي. هل هو غداً أو بعد الغد سبوعها؟ هل سيكون هناك سبوع، ودقات الهون، ورش الملح، وهز الغربال بالحمص وحب العزيز. والقلة الحمراء بالشموع؟ أخذ السطوع الوضيء في ذهنه يخبو، وتنوشه غاشية غيابات تمضي سراعاً، كأنه ينسى ثم يعود يتذكر. مختارة، صفية، وهيبة، جسم واحد صغير، مضغة رقيقة تصرخ، لما تكد تتحرك حتى تسقط ضاوية جافة، مكسورة. حِمْل ما أرقّه وما أهون ثقله، يحمله، كل مرة، كل مرة يا رب، على ذراعيه، إلى تحت. ويحمل الإثم والخطية، معه كل مرة. لم يغمر الجسم الصغير الهش أبداً في قلاية التنصير المملوءة بالماء المقدس، لم يصلّ عليه أبونا أبداً في الجبانة، على الطرف الغربي، هناك في الآخِر بعيداً عن بقية القبور، ليس له الحق، هذا الجسم الصغير المنبوذ الموؤود المنتهَك. ليس له الحق في شيء، الخلاص بعيد، في اليوم الأخير، بنته الواحدة الكثيرة لا مكان لها في الأرض المقدسة. ثلاثة ملائكة صغار، بجانب المسيح، ينتظرون أبداً الدهر، أزماناً لا نهاية لها، طوال قيام ملكوت الأرض، حتى تأتي الدينونة، ويأتيهم المسيح في اليوم الأخير. يحملهنّ بين ذراعيه، مسدود العينين، ويقبلهن بشفتيه

السوداوين، يخلصهن للمرة الأخيرة بجسمه المصلوب المطعون القائم من بين الأموات، ويقول لهن ادخلن معي، إلى ملكوت أبي، إلى بطن مركب مضيئة سابحة في السماء إلى أبد الآبدين.

ولم يستطع يوم الأحد الماضي أن يوافق على أن ينصّر الصغيرة الجديدة، ولا أن يعطيها اسماً، سوف يحتمل ثقل المخاطرة بالخطية مرة أخرى، نعم. ورفض أن يأتي أبونا ليصلي ويرش كل شيء بالماء المقدس ليطرد الروح الشرير من البيت، لو قبل فإنما هو بذلك سوف يعدها ـ هي أيضاً ـ لمراسيم موتها، من جديد. لا. لا. تظل من غير تعميد. من غير اسم، كأنه يخفيها عن بصرٍ مترصد يتلمس أين هي. حتى ينقضي الأسبوع. كأنه يخدع أحداً ما عن حقه الصارم القاسي، ويختبىء بطفلته بعيداً عن هاتين العينين. كأنها لم تولد بعد، مغلقاً عليها في لفائفها، في الغرفة. نعم.. ولكن معها أمها.. لا يستطيع أبداً أن يحسن إخفاءها عن كل عين.. عن كل خطر.. معها أمها.. معها أمها..

زجاجة الماء المصلى عليه، بين يديه، فيها تهديد ما. شفافة، وثقيلة، ثقيلة لا تحتملها أصابعه. يكاد يفلتها فتنكسر على الأرض، ويتشبث بها مع ذلك بخوف وأمل. يا رب، اتركها لنا، انسها يا رب، اتركها لنا، هذه المرة، يا ستنا العدرا.. يا أم الطفل، شفاعتك يا رحيمة.

ـ رحمة.. رحمة، نسميها رحمة، على اسمك يا أم المراحم يا عدرا..

مكتومة، نـدت عن نور مضـطرب يبرق وينـطفىء في ذهنه، لكن عيني أبيه كانتا حجرين، صلبين، ثابتين عليه، لا تطرفان.

- امتى تعـزمنا عـلى جوزين حمـام يـا سي فـانـوس؟ وَالاّ بس الحمام غِيّة يعني، واللا يعني الحمام غية؟

وابتسم، على الرغم منـه، بينما كـان الوجـه الأسمر المجـدور اللحيم يتهـدل وينكسر مرة أخـرى في ضحكة السُكْـر المهـدودة المتماوجة. في الضحكة الحسية الخشنة إيماء بذيء بسخونة اللحم وانـدلاع شهوة مكتـومـة وهشـاشـة العـظم الـرقيق يتهشم بـين الأسنان القوية، وطراوة الصدر الصغير مع كأس الكونياك.

- وَاللا الحمام غية..

وهو يسعل، ويكـرر نفسه، في غيـاب السُكْر، ويهـتز جسمه الضخم في آخر اندفاقات الضحكة المتحشرجة المكتظة، لا تكاد الكلمات تخرج من أحشاء الضحك الممتلئة.

- أبداً يا معلم جورجي، وحياتك دا الحمام حتى خايب السنة دي، ولسه ما عملش جوزين على بعض..

- الله يـا ابني مـا تشـوف الحكـايـة إيـه. لازم فيــه عِـرســه بتخطفولك.. والا البومـة اللي لابْـدة على راسِ الـبرج.. والله أنـا سامعهـا بوداني يـا آبا إرسـاني. سامعهـا الليلة وأنـا جـاي حَدَاكو من قـدام الجنينة، وسـامعها ليلة الجمعـة اللي فـاتت على طول.

أي والله، يجب أن يصعد البرج يوماً، ويخلص من هـذا الهمّ

الآخر. حكاية البومة هذه، أو العرسة، أو الحدادي أو الصقور، ما من أحد يدري.. تقتل أفراخ الحمام أولاً بأول، وعندما يذهب يطل عليه لا يجد إلا الريش الصغير ملوثاً بدم جاف قليل، والأصابع الصغيرة الملتوية في القدم المقطوعة ملقاة بين لفائف ورق الجوافة الذابل.

كانت العينان الواسعتان المضيئتان تنتظرانه، في عتمة الغرفة العلوية. وهو يدخل، يحمل المدفأة ما زال يتقد فيها الفحم بناره الحميمة المكنونة، عليه طبقة رقيقة بيضاء من الرماد المشقق الناعم. وضع المدفأة، بحرص، على الأرض، كأن كل حركة منه زلزلة في الغرفة وفي جسمه كله، ولزام عليه أن تكون كل إشارة وكل إيماءة، وكل انحناءة، موزونة محسوبة، وإلا اختل توازن هش ما، وتقلبت أعاصير ثقيلة متربصة ينبغي أن تظل محتبسة راكدة. لا، لم يشرب أكثر مما ينبغي. وابتسم، أو لعله شرب. وماذا يعني؟ عندما صَلَب عودَه، صدمته العينان المدورتان صدمة أخرى، من على السرير بأعمدته النحاسية وملاءة التُل البيضاء التي تدور حوله، وتتدلى ممزقة هنا، متهدلة هناك، وإن كانت ما زالت توحي له، بمجرد تهدلها الثابت دون اهتزاز، بعمق لياليه التي لا غور لها، محتشدة بالجوع والجنون والمضض والحبوط وسورة الأيادي والأطراف وتلويات حيوانات الأجسام وصرخاتها وتحليقها مشرعة المخالب مفتوحة الأفواه.

في فتْح الباب، اهتز خشب الشبّاك وأخذ يصطدم، وهو يرتج من عصف الهواء، اصطدامات سريعة متلاحقة بأركان

الحائط وبالأكوام الصغيرة التي تسنده، ونفذ منه فجأة تيار متقلب لافح البرد، فاستدار يحشر الباب في حائطه، فيحتك بالأرض التراب غير المستوية. وانقطع تيار الهواء، فكسل عن أن يذهب للشباك، كما كان في نيته، يعيد إحكام اغلاقه بالخرق ويدفعه بمشقة إلى مستقره من الحائط الطيني.

وما زالت العينان المدورتان المشعتان في عتمة الغرفة تحيطان به، فسيحتين، دافئتين، مياههما راكدة حوله، تحاصرانه. وخطا إلى السرير يسبح في عنصر العتمة يحمله متموجاً خفيفاً، صاعداً هابطاً في رفق، من غير جهد، ولكن في احتياط واتزان دقيق. وعندما وصل إلى مرساه غاص جسمه قليلاً تحت ثقله نفسه ثم هبّ هيناً، يجذبه بمجرد الاستسلام له، إلى أعلى. وألفت عيناه العتمة، وعظام الوجه الهشة الحادة، وفي وسطها بِرْكة العينين الصامتين، وشعرها المجعد غير المسرح، في خصل صلبة تقريباً. سقط جانب وجهه على المخدة، بطنها هش مشفوط، أضلاع صدرها تبدو ترائبها تحت الجلد الأسمر المشدود الغض، وفتحة القميص الرمادي الخشن واسعة، في طرفها تصلُّبٌ قليل حائل تلمسه العين، من بقع لبن جاف، وتحته وجه الصغيرة، في لفافتها، تمص حلمة الثدي بشرَهٍ مصمّم غائب عن كل شيء آخر، واليدان الدقيقتان تتلمسان الثدي الصغير، تتكشفانه وتدعوانه وتتطلبان منه، والوجه المحتقن محبوس الدم، داكناً، لاهثاً، في كتمة الرضاع الدؤوب الذي لا يهن تصميمه وتلمسه. ارتعش قلبه لها، والشفتان شرْطتان ملتصقتان على

الكرة الصغيرة التي تنبض بالحياة، قابضتين، مدفونتين في اللحم المضغوط. الذراع العارية القوية تحيط بالصغيرة، عظمة طويلة ناعمة مكشوفة منفلتة، معقوفة حولها، تحملها على جناح ناحل محرود، أصابعها تلتف بالرأس الصغير، ثابتة الأظافر، حول عظام جمجمة لينة معوجة، تنبض، ناصلة الزغب.

قال لها تأخرنا هيا بنا فقالت نعم تأخرنا هيا بنا. ووقفت، ما زالت شاحبة قليلاً من أثر الولادة ولكن نشطة في الظلام وأحسها تعد نفسها للخروج. كان مستعداً. وكان ثم قلق ناهش أيضاً لا يكاد يجعله يطيق الانتظار لحظة. قالت له الليلة؟ قال نعم لم يعد إلا الليلة. قال الانتظار لن يؤخر ولن يقدم قال لها ليس أمامنا إلا الليلة قال سنخرج، سنخرج الآن. شوارع القرية مظلمة تسفعها ريح متلاطمة نفاذة البرد. وحدهما يحملهما إحساس بالفقدان، وضرورة الاستدراك. الآن. ليس معهما رحمة. ومع ذلك ففي حسه أن الصغيرة قريبة منهما، وأنهما إنما إليها يخرجان، وهي وحدها وِجْهتُهما، يعرفان أين هي، ويتفقان في معرفتهما، دون أن يقول أحدهما للآخر عن معرفته شيئاً. في نصف الليل خرجا إليها، يخوضان في قلب القرية وحواريها، تجابههما فجأة حيطانها المصمتة المسدودة، ويرقيان، بلا جهد، أكوام السباخ وينحدران في السكك الضيقة المتعرجة، أقدامهما مع ذلك لا تحس موطئاً على الأرض. الغرض الذي يحمل ثقلهما ويدفع بهما إلى الأمام يحيط بهما، غير مرئيّ ولكنه محسوس لا يقاوَم. ويهب الهواء بفستانها الأسود المترب ويلتصق باستدارات

الهيكل الشامخ الناعم الأحجار، وفي خطوته السريعة المنتظمة الإيقاع تتوفز ذكورته من جديد، في حموة داخلية، في توقٍ إلى الصدر الوافر يهتز بحرية وثقل لدن تحت النسيج الذي يتكور حوله من دفعة يد الهواء، والبطن المقبب الراسخ القوي، والساقين العاليتين الممتلئتين، بقدميها الحافيتين الكبيرتين الخفيفتين مع ذلك. لكن العينين واسعتان، مضيئتان، جارحتان، فيهما إبهام وصمت، ناعمتان مع ذلك، فيهما نداء وخضوع. لمن العينان، وما الوجه؟ الهش الطويل بشعره المجعد، طبقة أساسية سفلية من العظام الحادة تحت وجه آخر مليء بنعمة الدسامة فيه سمرة الشمس ورائحة الخبيز والحليب وروث الجاموسة السخن. . خضرة. . خضرة. . العينان السمراوان تنظران إليه بإلحاح، ودعوة. نظرة الأنثى العارفة الفاهمة، كأنها تقول له تعال ماذا تنتظر مني أن أفعل. قال حنونة نحن نذهب إلى بيتنا ونحن نعرف أين البنت، خرجنا لنستعيدها قبل أن يطلع عليها الفجر البارد. العينان صامتان، فيهما ثبات محايد. والتي تسير إلى جانبه، ومعه: هي كلتاهما معاً، وقد انحل كل تعارض، ولم يوجد، لم يوجد قط ذلك الصراع الذي طالما عذّب قلبه المخنوق، لم يرتعش جسده أبداً للمسة يدها الخشنة وهي تسلّم عليه من تحت الطرحة كلما جاءت في الصبح عواف يا معلم فانوس بصوت فيه طراوة وتمنّعٌ ما، لم تسخن أحشاؤه أبداً تحت وقدة جسمها الفارع الخصيب وهي تنحني أمام الفرن، وتركع تحت الجاموسة، وتعجن الجلة، وتأتي

بصفيحة الماء من حنفية المشروع على رأسها، يشر الماء من صفيحها الأبيض اللامع في شمس الصبح الباكر، بل هناك الآن شبع عميق وتملّك ورضى، وقد اندست رجولته، مراراً، لا حصر لها، في هذا الجسم الوثير الهش معاً، تحت هذه النظرة الساكتة المغوية معاً، في هذا البطن الوفير الهضيم معاً، تحت هذا الوجه الغض الشاحب المشدود المشرق معاً، في ذلك الكيان الأصلي القديم المشترك المعذب المحبوب الذي لا قلق فيه أبداً.

وقفا فجأة، في نَفَس واحد، لم يتبادلا كلمة ولا نظرة، وسكت الهواء مرة واحدة. كان البرد هادئاً، رازحاً تحت سماء نصف مقمرة بها غيوم قاتمة مقطعة كأنها ملتصقة بجلد السماء المتوتر الناشف، ظلال القمر السوداء تسقط على صلابة الأرض، حالكة السواد. من ورائها سور السراية القديمة، حجر ضخم رمادي مرصوص، تقع عليه فضة القمر المصبوبة، تحدد خطوطه وتعرجاته وأليافه الخشنة وحباته الرملية البيضاء التي يتقشر عنها جسد الحجر. البيبان مغلقة والشبابيك مظلمة، والفناء وراءها فيه نفح الهجران والخواء، واسعاً موحشاً بأشجاره العالية الأثيثة. واصطفق مصراع نافذة على غير انتظار في الصمت وسكون الهواء، وخبط بحجر الحائط ثم ارتد، ليس هناك أحد يغلقه أو يفتحه. في ذهنهما شيء واحد مشترك: لا ينظر أحدهما إلى الآخر الآن، أبداً، أبداً. شيء يعقل لسانه عن أن يقولها، بينهما اتفاق معقود قديم. وهو مع ذلك مهموم مُعَنى مدفوع به إلى أن يتكلم، إلى أن يفتح فمه، وفي حسه أنه

بالصمت وحده يُحوِّط على كنزٍ ما، يصونه من الفقدان، وله عندئذ أمل فقط في الخلاص، وأنه مع ذلك مشدود مشبوح بالرغبة في أن يلتفت إليها، ولكن الأمل الأناني الذي يجزى له قلبه، يكبحه، وهو يكز عليه بقبضة أسنانه في وقتٍ معاً. عليهما أن يخطوا الآن، الآن دون انتظار لحظة واحدة، على هذه القنطرة الخشبية فوق ماء الترعة، إلى الشط الآخر. دون نظرة للوراء. هناك، بعيدة ولكنها مرئية تملأ العين، لفة صغيرة سوداء في دائرة الفضة الراكدة، مرمية على الرمل المرتفع الأبيض، وسط الخلاء. في مواجهة السراية. لفة صغيرة يمتد إليها كل قلبه بأذرع مشدودةٍ أصابعها ترتجف من فرط التوتر، محبوطة، في فراغ أحشائه. ظلال سور السراية وفضتها تنعكس في مرآة الترعة الخضراء الداكنة، غائرة، ذاهبة إلى أسفل، حتى نصف القمر الذي يسطع مقلوباً في عمق سحيق، بين الغيوم الواقفة السوداء. ظلال السراية كلها، بأبراجها المدورة الحجرية الواطئة، بنوافذها المسدودة، وبابها الخشبي الضخم المنحوت بنقوش دائرية هندسية، في وسطها صليب بارز مربع الأضلاع، وحول أطرافه استدارات كأجسام الزهور، كلها محددة دقيقة المعالم، تحت، في ماء الترعة. أنت تعرف أن هذا القصر لا وجود له، وراءك، معرفة اليقين الذي لا يحتمل الشك. وإن كان لا يمكن أن تلتفت إلى الوراء، لا يمكن، تحت تحديد خطر صارم تعرفه، ومع ذلك لا تعرف كنهه. لا تعرف ما هو، لكن تعرف أنك لا تستطيع أبداً أن تلتفت للوراء، وتتمنى من أعماق

قلبـك أن تكون هي أيضـاً عارفـة. نعم، بـل هي تعـرف، ولا يمكن أن تنظر هي أيضاً، إليك، وإلى السراية. أنفاسك المكتومة تتسارع من رعب القلق، لا تنظري.. لا تنظري.. شط الترعة يتحدر هيناً، ومرآة الماء المخضرة صافية الـوجه، البـاب أمامـك الآن، تحت، في المـاء، مـا عليـك إلا أن تنـزل من عـلى خشب القنطرة، أن تخطو على تربـة الشط الرمليـة المخضلة المتماسكـة ينز عليها ماء خفيف نـدي، وإن تهدي خـطواتك في العـالم المقلوب تحت الماء، إلى اتجاه بـاب القمر تمـاماً. أنت وحـدك. هي تفعل نفس الشيء أو هي تفعله معك، في وقت واحد. لا تـراك. ولا تراها. ولكنها معك، هنـاك، هي في داخلك، وخارجـك معاً. لا تـراها وهي مـلء عالمـك، دون أن ترفـع بصرك، معاً خـطوة بخـطوة، تحت السور العتيـد، الـذاهب إلى ارتفـاعـه المعكـوس تحت، في السماء المائيـة نصف المقمرة. حتى إذا وضعت قـدميك أمـام الباب مبـاشرة ابتلعك القصر فجـأة، ووجـدت نفسـك في داخله، في داخله، في الفناء، تحت السماء هنـاك، وأغلق الباب وراءك دون صـوت، ودخلت ولم يعد هنـاك أمـامـك ولا وراءك شيء، لم يعد هناك باب ينفتح لك مرة أخرى أبداً، لم يعد هناك إلا السراية المهجورة الخربة، يحيط بك سورها المتهدم العالي، لا منفذ منه، لا ثغـرة فيه، أنت في الـداخل، لا مخـرج لك أبـداً، تـظل تدور في الـبرْد الثقيل الصامت، تحت الأشجار المتكـاثفـة البـالية، وعـلى الأرض ورق الشجر قـد سرى العفن إلى الأرض المخضرة بالطحلب تحتـه، وعطنت ثـمار البلح والجوافـة القديمـة

التي سقطت بين طبقات الورق المتراكم من سنين عديدة، جف وصوّح فوق طين آسن، تدب فيه حشرات الأرض البليدة السمينة وعناكب سوداء، بطيئة بما تحمل في بطنها من تخمة العفن. في هذه الممرات، بين أشجار عجوز عليك أن تدور، دون نهاية، تحت النوافذ المظلمة، لا باب هناك. لا، لا.. أبداً. لا ينحدرْ خطوُك إلى الماء، حنونة تشبثي بخشب القنطرة، لا تنزلي، لا تنزلي معي، لن أنزل أنا، أبداً، أبداً، هناك، انظري، على الشط الرملي الأبيض بتتنا. ذراعاه ممدودتان، عيناه مشدودتان، قلبه مشبوح مسلوب ونظره معلق بالقامة النحيلة الشامخة في الجلابية السوداء، على وسط خشب القنطرة، المقوس قليلاً، مرتفعة عنه، تنظر إليه من فوق، بعينيها الواسعتين في القمر، صامتتين، دون غواية، ودون إدانة.

والحدادي العريضة الأجنحة تدوّم وتحوم تحت صخور الغيم في السماء، هائلة الأبعاد في انفساح جناحيها، تدور دورات متتالية هابطة، وهي تتضخم ويتسع انبساط جناحيها الساكنين دون حركة، ثم تنقضّ بصمت، ونعومة، على اللفة المرمية وسط الرمل الأبيض المرتفع، وراء الشط الآخر، وترتفع، مناقيرها خالية، وتحلق إلى علو بعيد، ثم تعود، وتعود، وتعود، دون صوت في كل مرة، ليس في مناقيرها المِزَع الممزقة التي لا يُطاق مرآها، في هذه الدورة التي لا تنتهي.

في اللحظة التالية كانا معاً، تحت الماء، في الترعة العكرةِ

السُمرة، وقد انعقدت الظلال وبقع الفضة السائلة معاً، واندمجت، وتقلبت في اهتزاز الموج البطيء. والماء قابض وضحضاح، والأرض تميد تحت جسميهما، لا تكاد، لزجة، رملية، ويشبّان معاً، ويخبطان بالأذرع، ولا رشاش هناك، يحتفظان بالوجه فوق الماء، يشهقان في طلب النَفَس، ثم ينقلبان في الماء معاً، دون غرق، يحتضن بين ذراعه الجسد المبتل الذي التصقت به الثياب وارتسمت كل تفاصيله تحتها، في شفافية محسوسة، تدفعه ليلتصق بكل استدارة فيها، ويطفوان معاً، في تموّج متماسك، متمدّدَين، يحملهما الماء دون جهد، ولا يخرجان فوق سطحه، والماء قد انحسر بجلبابها الطويل عن ساقيها المستديرتين اللامعتين من البلل، في لحمها، تحت يديه، بضاضة جديدة طازجة تومض في عتمة الماء المقمرة نصف الشفافة، والقمر يلوح ويختفي الآن من فوق الموج، يشع وينطفيء، قرصه نصف الدائري يهتز ويتساءل ويذوب ويعود إلى الاستدارة الساطعة الصلبة الحدود، والزمن طويل، وخاطف، ولا حس له به، وذراعاه العاريتان تحيطان بالفخذين الشاختين تحت الثياب المبتلة، وجهه غارق، توتره الراضي المرتاح لا ينتهي، وفي فمه طعم الماء واللحم العذب المضطرب.

قال لها تأخرتُ كنت أريد الخروج مبكراً قالت له نعم تأخرت لا تريد أن تفطر قال لها أفطر فيما بعد قالت الإفطار جاهز قال تأخرتُ كنت أريد الخروج مبكراً قالت نعم وكانت الشمس وراء الحوض الشرقي هناك ومع ذلك لا يبدو أنها قريبة

الشروق كأننا ما زلنا في أول فجرٍ دائم مقيم لا يتحرك معتم وشفاف معاً والسحاب الرمادي الزرقة مشعث الأطراف والهواء الباكر يسف بالتراب من على صحن الجرن الواسع النائم بحفرته العريضة الغائرة الجافة، والبيوت حواليه مائلة متساندة رثة في نصف دائرة مضطربة تهبط أرضها وترتفع حول الجرن.

وكان يسير مسرعاً مُحنياً رأسَه أمام ضربات الهواء الجاف، البرد غير مشبع وغير بليل يخِز العظام المرهقة الخاوية، والفلاحون يلتفتون إليه في طريقهم للغيطان، وعلى أكتافهم الفؤوس والمخلاة الخيش والمقاطف. . السلام عليكم وعليكم السلام ورحمة الله، لا يعرفه، أو لا يذكره، وهو يقضم فحل بصل في يده الضخمة السوداء المفلطحة الأظافر، خشن الوجه من النوم، على رأسه منديل معقود، ومن ورائه تأتي عجلة مسرعة والجلباب يطير بين الحيطان المصمتة. وانحرف في السكة المؤدية إلى الجنينة، وهو ينزل وساقاه تتقاربان وتتداركان في سرعةِ تحدرِ السكة حتى وصل فجأة أمام دكان الطوب النيء المفتوح على الجرن من الناحية الأخرى. كان الرجل غارقاً في حفرة طينية لزجة واسعة، وحواليه في الدكان قوالب الخشب بمستطيلاتها المتجاورة الفارغة، ملقى بها على الأرض ومنصوبة على الحائط الرمادي ساقاه تغوصان حتى ما تحت الركبتين، كأنه على عتبات النزول في البركة المحفورة التي تنز بماء قليل صدىء ثقيل الوزن. وهو يعجن الطين والتبن بذراعيه المفتولتين الملطختين بالوحل، ينحني بصدره القصير المدكوك المتين

ويعتدل، يملأ فراغ الدكان ونصفه مدفون في الأرض، قميصه مقور الفتحة، مقطوع الكمين، أسود جاف متصلب، ودقنه الكثة تخفي فماً واسعاً غليظاً تحت الشارب الغزير الحالك، عيناه خفرتان عميقتان، وهو يلقي بالسلام، كأن فيهما لمعة سخرية.

وعندما خرج إلى الزراعية في طريقه إلى جنينة الجوافة كانت السماء ما زالت كاسفة الزرقة، كابية، باردة، مُسجَّاة. كانت الساقية الحديدية بلونها البني المحروق صامتة مبلولة الصدأ من ندى الصبح، تشق البئر وترتفع تحت ظل شجرة التوت العريضة الجاثمة، حيث نور فَجْرٍ أكثر عتمة وأقل شفافية، وإلى جوارها خيمة العساكر بيضاء باهتة، تبدو متهدلة غير مهمة، وبجوارها عربة الجيش المصفحة، ودبابة صغيرة من طراز قديم كأنها لعبة معدنية بلونها الأصفر المطلي الجديد، ولكن مدافعها الرقيقة الطويلة وسلسلة الجنزير العريضة السوداء القوية، على تراب الطريق، وبرجها القليل الارتفاع، تحمل كلها قوة كامنة متربصة تحت المعدن الذي يبدو مع ذلك هشاً، وعليه أرقام وحروف لا يكاد يقرأها من بعيد. منذ مدة طويلة والأخبار والإشاعات تجري بأن اللجنة قادمة للتفتيش، ولكن العمدة يضحك ويهتّ في الناس. جاءت اللجنة أخيراً إذن، ومعها قوة. كنا نظن أنهم سيكتفون بمندوب الإصلاح في المركز ومعه عساكر الأمن وضابط من المحافظة على الأكثر، ولكن هذه هي اللجنة، ومعها قوة. يا فرج الله، لا بد أنهم أجرُوا التفتيش الليلة الماضية في السراية. أخيراً. أمامه اليوم عمل كثير، وسين وجيم، ينفض ما على

قلبه. ليس لديه إثبات، صحيح، لكنه على يقين، وسيقول، سيتكلم بالعقل يا وله. بالعقل يا فانوس، أوع تصرّخ أوع تهبّل، ما عليهم إلا أنهم يطلبوا الدفاتر كلها، والفلاحين كلهم، ويحققوا. وسيعرفون، سيعرفون. هل يتكلم الفلاحون بعد الصمت الطويل؟ هل يتكلمون أخيراً؟ ويقولون عما في القلب من همّ وغمّ؟ والعمدة هل يكون موجوداً عند سماع الأقوال، ويشخط وينطر، ويجيب سيرة الآباء والأمهات والأخوات هل تنفك عقدة اللسان، ويكشفون الورق، أم تطويهم اللعبة من جديد؟ فيهم، نعم فيهم عيال بقلب حديد، وألسنة كالكرابيج.. آه يا ولاد، لو أفش غليلي، وأنقع السم عن قلبي، وأشوف فيهم يوم.

دفع باب الجنينة وخطا بين أعواد حطب الذرة النحاسية الداكنةِ القشرة على التراب، في تقطّر نور الصبح المبكر، تحت السَنْطة القديمة المجعدة بعقدها الخشبية الناتئة، وبين أشجار الجوافة القصيرة، مصفوفة، منشعبة، في خطوط هندسية، والممرات التراب بينها مغطاة بأوراق صفراء ومخضرة هشة ضامرة تخشخش تحت قدميه وتتهشم ويطير بها الهواء.

وملأ عينيه البرج الجاثم الطيني، بثقوبه الصغيرة، رازحاً، دائرياً، عريضاً، من تحت، يستدق وهو يرتفع، وتبرز من أعلاه نتوءات خشبية من كل جانب، كأشواك في جانبي فم حوت بري، جسده من الطين النيء. وأسند السلم الخشبي النقالي

إلى جسم البرج المتين، وراح يـرقى العوارض الـرقيقة الحـرجة، ممسكاً بقائمتي السلم الجانبيتين، يـدرج، في كل خـطوة إلى أعلى نحو سماء مُسفة هابطة إليه، مهـددة، وقد أخـذت هبات الهـواء تصفّر، وترتطم حواليه، وتلصق جلبابـه الصوف بجـانب صدره مرة، ثم تنفخه وتملؤه حتى يكاد دفع الهـواء يحمله، رغماً عنـه، ويلقيـه إلى تحت، في هـوة الفـراغ، نحـو الأرض التي تبتعـد، وتصغر، وتبدو تحته قاسية، غير مرحبة، بأشجارها المصفوفة التي يرى، من فوق، نواصيـها المتكـاثفة تـبرز منها الأغصـان المدببـة العارية الأطراف.

الغيطان تحته، وهو يرتفع، موحشـة، خاويـة، نائمـة في نور مبهم، زروعهـا قصـيرة، مقـرورة، تـرتجف، والقنـوات بينهـا متعرجة بمياه مسودة. وهديل الحمام رتيباً، ملحاً، يتردد في السماء المغلقـة، يخطفـه الهواء منـه، فيخفت ويبتعد، ثم يعيـده إليه في نفحة باردة، متضخماً يملأ البرج والسماء معـاً بطنـين ناعم مستمـر مضطرب، وخفق الأجنحة في هياج الريش الوثير الـرقيق، وهي تتضـام عـلى قبـاب الصـدور الممتلئـة بشهيق متخم بـالأنفـاس المخـتزنة ونفث الهـديل، بـزغبها الملون المتقلب الألـوان في النور المكتـوم، يتموج عليـه الريش النـاعم رمادياً ورصاصيـاً وأزرق وأبيض ومخططاً بخطوط منسـابة أليفـة. وهو ينـظر في كل خن، ويمـد يـده إلى الـدفء الضيق الـزخم بـرائحـة الـزبـل الجـاف الحريف، ويتحسس العوارض الخشبيـة الناتئـة من البرج، تحت يديه، قوية الألياف، متينة، عليها بقايا الزبل الأبيض في تخثرات

صلبة الملمس مشعثة الحواف تتبدى بينها فجأة عضـلات الخشب الخشنة الرفيعة المفتولة محترقة من طول التعرض للبلل والشمس.

ويطير الحمام من على العوارض ومن الثقوب، ثم يعود، يسير متئداً برشاقة متحيرة، يدير رأسه كل ناحية، وينقر تحت جنـاحيه وفي صدره بإلحاحٍ وبحث، ويغوص برأسه في الصـدر الأصهب الأبيض، غـارقاً بعينيـه في نعومـة الشعر، والعصـافير تـزقـزق، متفزعة خفيفة لا وزن لها، ويأتي اليمام الـبري نحيلاً، ينـظر إليه كأنما لا يكاد يقبل وجـوده هناك في العلو الفسيـح الذي ليس لـه مكـان فيه، يـرتفع بـاستمرار دون وصـول، ويظل يـرتفع، بـلا نهاية. اليمام الذي لا تربطه به رابطة، كأنمـا يتنازل حـين يرضى بأن يحسو مـاءه، أو يلتقط الذرة والغلة من بـرجه، طليقـاً، غير مقيد بحُبّ الناس.

استـدارة البرج تحت يـديه دافئـة في الصبح الغـائم الشـاتي، بطينها الجاف المخطط بخيوط التبن النحاسيـة، وهو يتحسسهـا، ملء ذراعيه، فيطير الحمام قليلاً إلى بعيد، ثم يعود إلى العوارض الخشبية، ويهرب إلى الخن المعتم الداكن، ما يـزال يهدل وينـوح بإيقاع رتيب لا يفـرغ أبداً. قـدماه تهـتزان على عـارضة السلم، وهو يعلو يُسنِد جسمه كله، لحظة إلى الجدار الممتلىء في دورانـه العـريض البـطيء. يسري إليـه، من الحيـاة التي تعمـر داخله، دفءٌ ناعم ينبض في أنين خافت مستمتع. وجهه قريب جداً من الحائط الطيني، في عظامه جوع إلى الاقتراب منه، والتمرغ عـلى صفحته البضة المتلقية. الجسد الـطيني الباذخ يصعـد إلى الهواء،

شامخاً، من فوق عينيه الظامئتين المحترقتين. يحتضن البرج احتضاناً وثيقاً متشبثاً كأنه في قبضة صراع قاتل لن يسلّم فيه أحد الطرفين. لا يكاد يرى قمة البرج، تتخايل له، على السطح المقبب البعيد، عينان واسعتان في عتمة غير مستبينة، والأيدي بمخالبها المقوسة تقبض على ذؤابة قلبه، وتعتصره، تلقيه، في عناق الصراع الصموت، شلواً جافاً في ظلمة مقفلة أرضها من طين ناشف عار. إنها هناك، جاثمة في مأواها، لا تُنال، منيعة لن تطولها يداه قط. لن يستطيع الصعود إليها، وهو يرفع جسمه، بجهد، إلى العارضة الأخيرة الصغيرة في السلم الذي يتذبذب أهون ذبذبة، لا يكاد يتأرجح، ولا يسقط. ويمد عينيه إلى الخن الأخير، وقلبه يهوي منه، ويتردى، في معرفة سابقة بما يراه، ويراه حقاً في عتمة الكن الصغير الخاوي، رأسِ الحمامة الصغير المعوج العظام، ملقى به على الطين، مبتوراً. على جلدته الشفافة زغب مشتت هش. والقدمان الصغيرتان، بأصابعهما الدقيقة الحمراء، مقطوعتان، لم تكد تنبت لهما المخالب الصغيرة الوديعة، مشلولتان، ملتويتان، كأن الحياة قد غاضت عنها فقط منذ لحظة. وكومة صغيرة من ريش متناثر، الحمامة الصغيرة افترستها، قبل الفجر، نظرةٌ ثاقبة، صلبة قاسية. وكأن فماً فاغراً في داخله، محفوراً في جدار نفسه يصرخ صرخة طويلة لا تنتهي، تنوح بلا أمل، يتردد صداها، حتى الأفق الغامض بين دغلات الأشجار الصغيرة في البعد، المثقلة بأحزان الصباح الجديد.

لا يرى شيئاً على سطح البرج المكور الصقول، لا يجد شيئاً على الجدار القاحل المسدود، ذراعاه تعانقان، بلا جدوى، ولا تَحَقُّق، استدارةً دافئة ناعمة ولكن متماسكة لا تلين.

ونظرته لا يستطيع أن يحولها، من وراء استدارة البرج التي تسد نصف الأفق، عن المرتفع الخشن بنباتات الحَلْفاء الشائكة، تمتد جنبه وتحته مياهُ النشع الملحي المهجور، والطين المغطى بكِسَرٍ من الملح الثلب الرمادي يلمع في نور الصبح الغائم. وعلى المرتفع نتوءات القبور المستطيلة المحدبة الظهور، بصلبانها المعوجة الساقطة، صغيرة، مهملة، لا أهمية لها، تحت الأغصان الملتفة المتراكمة، المضرجة بنقط دموية قانية، غضة الاحمرار، في الأشجار الكثة الوحشية.

في الشوارع

كانت العينان اللتان تنظران إليه قاسيتين، معاديتين، يعرفهما طول عمره. تواجهانه، بصمت، من غير لغة. ولا يريد أن يرد عليهما.

وكان مس الموسى ينزلق على صفحة وجهه الغارقة في رغوة دمثة. معجون الحلاقة له لذعة خفيفة على الجلد، احتكاك الموسى بوجهه ناعم نظيف مريح. وفي الحمام هدوء ضوء الصبح النائم، ويأتيه فحيح البوتاجاز خافتاً من بعيد، تحت ماء يغلي في أمان. وقد انجابت فرقعة أوتوبيس المدرسة من قليل، وذهب يحمل الأولاد وهو يعوي بزمارة دعيّة صخابة، ويرتجّ لمروره زجاج البيت.

ربنا يستر. لعله لا يطلع عليهم في الطريق، وتحدث حادثة.

هذا القلق نقطة صلبة خشنة الحواف لا تنحل، ولكنه، بشكل ما، ينعّمه ويصقله ويغطيه، لا يذيبه ولا ينساه ولا يتجاهله، بل يقبله ولكن يدفعه بعيداً تحت طبقات أخرى من الرجاء والتعلل بالثقة من أنه لن يحدث شيء. وماذا بوسعه أن

يفعل؟ كل الناس تتكلم، ولكن الصحف والإذاعة والتلفزيون لا تقول شيئاً، بإصرار. لا أحد من معارفه أو أصدقائه أو أقربائه رآه رأي العين، أو سمعه بالفعل بأذنه. كل الناس سمعت من مصادر ثقة، كل الناس عرفت من أصدقاء وأقرباء لا يمكن ولا مصلحة لهم أن يكذبوا أو يروجوا إشاعة لا أساس لها. سلطات الأمن تعمل ليل نهار وقد جندت قوات خاصة لتعقب حقيقة الأمر، ولكنها تحرص أن يكون ذلك من غير إعلان، حتى يأتي اليوم المشهود.

وهو لا يكاد يصدق، أو يصدق. ولكنه لا يعتقد أن الأمر يمكن أن يتعلق به أو يهمه مباشرة. قد يكون صحيحاً. لعله فعلاً يمر بالشوارع، هناك، بعد الشوارع، ولعله فعلاً يهاجم الناس، ويقع المصابون، ما من أحد رأى شيئاً حقاً. ولم يظهر في طريقه على أي حال، ولا طريق الأولاد في المدرسة.

صحيح أنه التقى، بمحض الصدفة، بإثنين أو ثلاثة من معارفه القدامى. وكانت الأخبار قد ترامت إليه أنه اعترضهم في الشارع، وأن شيئاً ما قد حدث. أصابتهم جراح، ويقولون أنهم يحملون آثار تشوهات. لكن لم يكن يبدو عليهم شيء، لا أثر لجرح، أو صدمة. لعلهم يحسنون إخفاءها.

كانوا حريصين على أن يظهروا بمظهر طبيعي جداً، طبيعي أكثر قليلاً مما يمكن لك أن تنتظر. وسلم عليهم هو أيضاً، بحرارة أكثر قليلاً ـ قليلاً جداً ـ من المعتاد، وتبادلوا التحيات

والمجاملات وأنهوا ما هم بسبيله، وانصرفوا. لم يشيروا إلى شيء ولو من بعيد، لم تجر كلمة بينهم عن الموضوع كله. هل في نظرتهم شيء بعيد، غائب، أو مكتوم؟ ربما كان هذا كل ما في الأمر. وهم يستحقون ما وقع لهم على أي حال ـ إن كان قد وقع لهم شيء. لماذا يتصدون له؟ لماذا يخرجون إليه؟ ما لهم هم؟ فإذا كانوا قد ذهبوا إليه، في سكّته، عمداً أو عن غفلة، فلعلهم كانوا قد حسبوا حسابهم، من الأول. ونالوا جزاءهم على كل حال. كانوا إذن قد قبلوا المخاطرة والنتيجة الضرورية للمخاطرة، أو استحقوا ما يجري للغافلين. ماذا حدث لهم؟ ما تلك التجربة يطوون عليها نظرتهم المرتدة إلى الداخل تتجنب الالتقاء والمواجهة؟ ماذا يمكن أن يحدث ـ على أي حال ـ في الشوارع الصيفية الضيقة الغاصة المحرقة المتراكبة بالحر والزحمة؟ بين الأوتوبيسات المتوحشة الثقيلة الهاجمة، والبيوت القديمة جففتها الشمس واغبرت بتراب خفي عنيد صفحات وجوهها الذابلة المتساقطة الجلود؟ بين مواكب الناس المدومة المختلطة المتشابكة التي لا تنتهي بالجلاليب والقفاطين والفساتين والملايات والبنطلونات والبلوزات، بالجزم والبلغ والصنادل والأقدام الحافية، أمام الدكاكين المفتوحة وسيارات النقل الضخمة المشعثة الحمولة، بين عساكر المرور بعصيهم القصيرة ووجوههم السوداء الغارقة في الملل والعرق، على الإسفلت المشقق، وجزر البلاط الضيقة الشريطية وسط الشوارع، والخضرة المصفرة الساقطة، وأوراق الصحف والنفايات المتطايرة وأكوام التراب الصغيرة،

بـين أكشاك السجـاير والبضـائع المستـوردة، والكتب والمجـلات الملقاة على الرصيف، بين الأنوار والصفافير والسيارات اللامعة، والتاكسات المكسرة، والعـربات الكـارو والترامـوايات وعـربات الفاكهة والفجل والجزر؟ ماذا يمكن أن يكون قد حدث لهم، أن يكـون قد فعـل بهم، في الشوارع، وفي وقـدة الشمس العـاريـة البذيئة وفوانيس النور وإعلانات النيون؟

كـانت دفقات المـاء الفاتـر تنصب على رأسـه ومؤخرة عنقـه، يجمعهـا بين راحتي يـديه من تحت الحنفيـة، ويطس بهـا وجهه، ويلقي بها على رأسه، فلا يسمع إلا صدمات الشلالات الصغيرة المفـاجئة، وهـو يشهق باستمتـاع، وعنف، ويجفف وجهه كـأنمـا يكحته، كأنما يريد أن يمحو شيئاً لا يُرى ولا يمحي.

كان الأوتوبيس الضخم ينطلق غاصـاً بالنـاس ولكن صامتـاً، على حافـة النيل. وقـد فتح الشبـاك إلى جانب وجهـه، وساقـاه مرتفعتان في وضع حرج، قدماه على الاستدارة الحديديـة الناتئـة فوق العجلة الأمامية، ناعمة، مكشوطـة بان صـدؤها، والـزحمة قد تحولت الآن إلى نـوع من العجينة الثـابتة الـرخية، انحسرت عنهـا تقلبات النـزول والصعود وصراعـات الوقـوف والتحـرك، وقطع التذاكر ـ أو التهرب منه ـ واصطيـاد المقاعـد والتربص بهـا والبحث عن مواطيء مريحة للأقدام. وفي داخل الكتلة الضخمة المندفعة كأنما رغماً عنها، لا تملك أن تـرد حركتهـا أو تطامن من انطلاقها، كان يحس موجة ثقيلة ولكن مقبولـة، بل مـريحة، من التماس الوثيق الحميم بين الأجسام التي همدت ـ في توتـر متراخ ـ

وأمنت لحظة من لجاجة شدٍ وجـذبٍ لا ينتهي وأحـاطت بهـا جدران ملفوفة، مصقولة، توحي بالاطمئنان في قوتها الذاهبة إلى غرضها لا تحيد، هشة ولكن مفتولة الذبذبات محكمة الرقائق، بين زجاج النوافذ السميك المترب الشفافية، والمقاعد الجلدية البلاستيك اللامعة من احتكاك الأجسام العرقانة، والأعمدة النيكل الرقيقة المدورة. والأرضية، تحت الأقدام، تهب وتنزو وتنحط في انسياب متموج يقترن بأرض الشارع ويسيطر عليها بثقة.

وقد امتلأ الأوتوبيس بهدير المحرك والأنفاس الحميمة الهادئة والتلاصق الذي استقر، لحظة، إلى نوع من الرضى والقبول - ما أندره! - بين الناس بعضهم البعض.

وهواء النيل يدخل إليه، فجأة، من على صدر المياه الواسع العريض، فيغمض عينيه، ينفحه الهواء بنشقة تملأ قلبه براحة أخرى، كأنها صوفية، وكأنه لم يكن قد أوى إلى ذخر من التعلات، وذكاء الحيوان الذي يريد أن يتشبث بالحفة، ولا يقع.

في وسط براح المياه الرقراق مركب وحيد صغير أسود، يبدو من بعيد مشققاً أعجف، قشرة ضئيلة نحيلة يصعد بها وجه المياه ويهبط، في رفق. ينبثق منها شراع أبيض مفرود شاهق الارتفاع ممتلىء بالهواء، روح قوية عريضة الجناح، تشق طريقها بتوق ووجد إلى السماء الباردة الزرقة، يحملها جسم هزيل خشبي ضامر

تلعب به موجات صغيرة وسط تيه شاسع في سهل المياه الرمادية.

وتحت عينيه شط النيل ينحدر إلى التفافات كثيفة محروقة الخضرة من نباتات الحلفاء والبوص، ورقعة صغيرة ممهدة مزروعة، على الشط، بأعواد صغيرة من الذرة المهدلة الشواشي، وخصّ صغير مكسور من الخوص والطين الجاف، لا باب له، وعلى الشط الآخر اهتزازات نور الصبح، بلا صوت، بين حيوانات غامضة أليفة قاتمة الخضرة من الأشجار اللفاء العجوز والبنايات المرتبة المنسقة، طَهَّرها بُعد المسافة والضوء المائي من وحشيتها، وروّضها، وغسل عنها سوقية الحسابات العارية، لانت واستكنت، في نوع من اللدونة الطفلية، تحت نور الصبح وتراوح نغمات الخضرة وقتامة ماء النيل.

ارتفعت صرخة الفرامل فجأة ثاقبة، كاشطة، تنوح. لف الأوتوبيس على الشط لفة واسعة، سريعة جداً، ومالت الكتلة الضخمة، في هدير المحرك الذي يئز في ذعر وغضب معاً، وأحس العجلات تحته تخرج عن حافة الإسفلت الصلب الأمين وتثب، في رجة تهدّ العظم، فوق بلاط الرصيف، وتحتك، متشبثة، بتراب الشط الهين القوام. واندفعت من جانبه سيارة نقل، تكركر في ثقل، وفراملها تعول أيضاً في صرخة بطيئة، وأطراف حمولتها من أعواد الحديد الصدىء الناتىء تكاد تخترق زجاج الأوتوبيس، وكتلة الأوتوبيس تنزل على الجسر الطيني، منحدرة بمقدمتها العريضة إلى أسفل، وتدخل تحت كتف من

جـرف بارز، مجـوف، عـريض. الأرض، تحت العجـلات التي تـدور سريعة تتلمس النجـاة والحياة، لـزجة رخـوة طينية لكنهـا تحتمل ثقلها، حركتها الـدائرة الجـارية تهبشهـا في استماتـة، وقد انحشر سقف الأوتوبيس تحت الكتف الطينية الثابتـة، تخمشه في خشونة ولا تنشدخ مع ذلك، وتمر غيامة خاطفة من العتمـة، في الفجـوة القريبـة من النيل، ولم يعـد في العربـة إلا لحظة صمت كاملة، كأنها الأبد، من غير أنفاس، انجابت فجـأة كما سقـطت فجـأة، والسائق يـدور والنـاس تهتف وتصرخ وتميـل وتـترنـح، أذهلتهم المفـاجـأة وهبت صيحـاتهم ودعـواتهم الملهـوفـة، مـلء عيـونهم تقلبـات متعـاقبـة من الأرض والمـاء والإسفلت والـطين المتماسك، والسـائق يغير السرعـة في حمى البحث عن الخلاص، واليقظة الحادة، ويضغط على البنزين، ويرتفع الأوتوبيس بجرمه الثقيـل وقوتـه الـدافعـة إلى أعـلى ويصعـد، وتتشبث العجـلات الأمامية بثبات جديد في منحدر الأرض المرتفعة وتزحف مندفعـة إلى فوق، على أرض تهدد كل لحظة بالانهيـار ولا تنهار، ويتشمم خـطم الأوتوبيس الأرض المـرتفعة ولكنـه لا يمسهـا، ينشق منهـا نفس حيـاتـه ورائحـة الـتراب، ويشهق، شهقـة واحـدة متقلبـة الـزئير، يـزوم في هـريـره الممتـلىء الصـدر، ويـزحف إلى أعـلى باستماتـة، والعجلات تـرتفع عـلى أرض لا أفق لها، إلى حـرف السـماء تتوقـل صاعـدة على جـرف لا يسقط ولكنه لا يصـل إلى الأمان، في نفس اللحظة التي تدمدم فيها قعقعة مكتومة ويتخبط السقف بـالكتف الترابي، وينـطبق إلى تحت فوق رؤوس النـاس

تحت ضغط الطين الجاف، ويتقوض جرف هش من كتل التراب الجامدة على الشط وتسقط الكتل الصغيرة من غير صوت ويرتفع منها رشاش بطيء، موسيقيّ الحركة، لا شأن له بشيء، وهناك، فوق، من بعيد، على الأفق الشاهق الارتفاع الذي لا تصل إليه العجلات في دورانها المتماسك الحرج المصمم الملهوف، تحت صفحة السماء، بإزاء خلفية العمارات الملونة بالبني المنطفىء والأزرق الكبريتي الكابي، هناك، وحدها، متميزة قاطعة الحواف، عربة تين شوكي، على عجلاتها الخشبية الدائريه الرقيقة الفروع، أخشاب العجلات المفرغة تبدو من خلالها زرقة السماء، رقيقة مشعة من المركز، منفرجة من بؤرتها المكورة الصلبة، في موسيقى هندسية ثابتة، وأكوام الحبوب الشوكية، عالية، غضة بعصارتها، نباتات عصّية وكثيفة الغنى، لا تبالي، تحديها لا رد عليه، وبجانبها صفيحة الماء تومض بشعاع لا تطيق عيناه أن تستقرا عليه.

عندما دخل إلى ميدان التحرير آتياً من اتجاه كوبري قصر النيل، في نور الصبح العاري الثقيل، وما زالت قدماه غير متوازنتين قليلاً، لا تكادان تستقران على الأرض، ورفع رأسه ليعبر الطريق، سمع صوت النافورة لأول مرة، واضحاً في الشمس، والمياه تسقط على الرخام المفكك المتآكل، وحفيف التراب في أوراق الشجر الجافة.

كان الميدان، تحيط به شوارعه المسفلتة وتخترقه ممرات متلوية وفسحات من الخضرة الناصلة، خاوياً. ميدان في وسط بلد

ريفيـة، وبنايـات المجمع، والمتحف، والعـمارات القـديمـة، من ناحية، رازحة كلها، وقصيرة، ومفلطحة، بهائم ضخمة كسـول حول الجرن، مـدت كتل أقـدامها العـريضة ودفنت رؤوسهـا في كومة عظامها الساقطة، الهـامدة. ومن النـاحية الأخـرى اقتحام الهيلتـون برشـاقةٍ لا حيـاة فيها، سـوقية جـدران مصقولـة حادة ملطخة بمساحات مقطوعـة من الألوان الجـارحة. ميـاه النافـورة تعلو، في غـير همـة، وتقـع، متنـاثـرة القـطرات عـلى الحـوض المكسور. والمماشي الترابية المتعرجة، خـالية، عليهـا أوراق ممزقـة يتطاير بها هواء مسف مـترب. خلية الأوتـوبيسات الحمـراء تموج بنحـل ثقيل قـذر، تطن ببطء وتـزاحم، لا تـدور حـول مـركـز إشعـاع، تنسرب في الشوارع من غـير وجهة. إعـلانات النيـون حمـراء زرقاء تـومض وتنطفىء، تسـطع بـاهتـة في النـور الجـامـد المحايد، لماذا أضاؤوها في نور الصبح؟ وظلال النـاس القائمـة في الشمس، تسير في غير سرعة وفي غير بطء، محنية، يحسها قامات سوداء رفيعة رثـة هزيلة مجـوفة، في وسط إشعـاع رازح شامـل، تختط طريقها إلى كنّ الحيطان وأمن الأثاث والكـراكيب والمكاتب والسراير الرثة.

ومـرت من أمامـه، كأنمـا تأتي من عـالم آخر، دراجـة مسرعة رشيقة يدور بها صبي جنايني، ويستدير عسكري المرور ليفتح لها طريقاً خاوياً لامعاً أسود ليس فيـه غيرهـا، وخلف الولـد، على السلة الحـديديـة المعلقة بـالدراجـة، أكوام شـاهقة من الأزهـار الأثيثه المكتنزة الجسد، طرية غضة، يتدفق غنى ألوانها في النور،

في لدونة لحم حي وثير، ورقّته، مقطوعة، ملفوفة إلى بعضها البعض بخيوط خضراء من أعواد نبات، أشرطة حالات تحز في بضاضة البياض وفي نداوة الألوان الوردية وتحدي الحمرة اليانعة وكثافة الزرقة المليئة بالعصير، خطفت أمامه وابتعدت، في كل مجدها الحسي. كأنما غرق في لحظة في طيات جسد امرأة باذخة، في لحظة الحرارة الأخيرة الناعمة.

كان الجرم الصغير الوديع، بسنامه الصغير على ظهره، يأتي من يمينه، من ناحية باب اللوق، بين سيارات قليلة متباعدة، تنحرف وتختفي في الشوارع الجانبية، تتجنب الميدان، وتنسل من تحت اللوحات الخشبية الضخمة ملصقاً عليها إعلانات الويسكي والسينما الورقية الممزقة الأطراف. وتراءت له قبلة شرهة بذيئة فاغرة فاها، لا تتحقق أبداً، بين وجه رجل بنفسجي كامد مخطط، وامرأة راقدة حمراء عارية الساقين تأكل جسدها الحروف المتضخمة المتعرجة.

اقترب من الشارع الخلفي عند مبنى وزارة الخارجية القديم، طويلاً، بارز الأسنان في وجه أسمر نحيف العظام، ووقف بجانبه، ينتظر إشارة المرور. كان الطريق مفتوحاً. هادئاً في قميصه الأبيض المشمور الأكمام، ذراعاه مسترخيتان، تنتهيان بأصابع مستدقة سوداء الأظافر، في ساقيه رشاقة توحي بقوة خفية، بمقدرة خارقة على القبض والتملك، في قدميه حذاء تنس من قماش حال بياضه إلى سمرة.

أحس رغبة أن يقول شيئاً فالتفت إليه، وقال بجد:

ـ لماذا لم يضربوه؟

ـ لا بد أن يأكل.

ـ لا بد أن نأكل كلنا، ونعيش.

ـ الجو حر.

ـ أول الصيف. الحر جاء مبكراً.

ـ سنعود بالليل لبيوتنا.

ـ وأين بيته؟

ـ لا بـد أن يسير المـركب. سواء كـان النيـل هـادئـاً أم غـير هادىء.

ـ سيأتي الليل أبطأ من السفينة. هذا كل شيء.

التفت فجأة، فرآه. لا يتحرك، قريباً منه في وسط الـطريق، وحده.

كان ينظر إلى الجرم الضخم قادمـاً من اليمين، بعيـون عاقلة وشرسة، يتربص، دون أن تختلج فيه عضلة.

لا يصدر عنه صوت، لسانـه العريض الأحمـر المحبب، مدلى من فمـه، مبرد حي مشحـون بـطاقتـه، سـاقط من تحت الأنف الضخم المفلطح، أقدامه ثابتة لينة على الإسفلت الأسود، جبهته المرقطة مدورة، هابطة، وجفناه الثقيلان ينزلان على عينيه، كـأنه نصف مغمض، مـرهق من السفـر، هـادىء يعـرف سيـطرتـه،

ينتظر بثقة لحظته، وكأنما تخلخل الهواء من حواليه، وفرغ، وملأته شحنة جديدة غير مرئية من القوة والتهديد.

وأحس صدره يضيق. وألم غير مستبين ولكن موجع وضاغط يقبض على عظام ضلوعه، بخفة ولكن من غير أن يفلته، ويتهدد، وتتركز له نقط حادة في مكان قلبه.

ما زال يخب في فسحة الميدان الواسع، قادماً إليه، شامخاً في كيانه البطيء الناسي، بنوع من الرشاقة المهتزة الثقيلة، ينظر من عل إلى الأمام، في غير مبالاة.

سمع صوت الهرير العميق الأجوف الخشن، يتردد ويتضخم، وإن كان ما زال في طبقة تحتية مدفونة، ويملأ سكون الميدان الذي تتناوش صمته أصداء خافتة من نفير سيارات وصلصلة ترام بعيدة، وحفيف النافورة.

سوف يثب الآن، وينقض عليه بمخالبه المشرعة الثاقبة الممزعة، وسوف تسقط كتلته المدمرة بهجوم مندفع لا يوقفه شيء، بحيوية خاطفة لا راد عليها، وينطلق الزئير في نشوة الهجوم، وتنشب الأنياب المدببة في العنق الطويل. سوف يختلط الخوار المفزَّع الشاكي الأجش، بزمجرة النهش والتمزيق المتقطرة دماً. ويسقط الجرم الشاهق على الإسفلت، تحت دفعة الوثبة المنقضة عليه. ولكن تتشبث به، لا تفلته، السيقان القوية القصيرة القابضة بكلاباتها العظمية النافذة إلى مخابيء الحياة بحساسيتها النابضة الخافية التي لا منعة فيها.

سـوف تصـطدم السيقـان والأذرع والضلوع، وتـصـطرع الأجسام، وترتطم أعمدة العظام، بلا عقل. في شراهة الخطف والهبش، في الـتـطام التخبط والتـصـادم، في تصـميـم الكسر والهصم، بين تهشم حجارة الحياة المنقوضـة، وضجيج الأحشـاء المكنونة مكشوفة فجأة للنور القاتل، بين صرخة النصر وحشرجة التشبث بالهواء الواهب للحياة.

كـان ينهج، وهـو يصطدم بـالناس، ويهتفـون به، يمـرق بين السيارات وعربات الكارو المتزاحمة، وتلاحقه الشتائم والتوجعات الساخرة، ويهبط سلالم مترية بين جـدران ضيقة مـترية، وتصفّـر خلفـه عساكـر المـرور، وتنحـرف الـدراجـات عنـه وهي تقـرع أجـراسها دون تـوقف، ويتراجـع النـاس أمـامـه وهم يشـوّرون بأيديهم ويزعقون به.

كان قد رآه. التقى به، وحده. وفي قلب الميدان.

وعـرف الآن ماذا يمكن أن يحـدث. ما يحـدث بالفعـل. وهو أيضاً لن يقول لأحد أبداً.

لكنه عرف أيضاً ماذا عليه أن يفعل، منذ الآن. عرف بقلب واجف قلق ما يجب أن يفعل، هـل يستطيعـه؟ هل يستـطيع أن يقوم بالمهمة التي قرأها في العينين العاقلتين الشرستين؟

كيف وصـل إلى الغوريـة؟ لم يكن في ذهنه إلا صـور متعاقبـة خـاطفة من الـترامـوايـات والناس، من الـزحمـة والعـربـات، في مـطاردة أفلت من قبضـاتهـا المفـاجئـة المتهـددة، من صرخـاتهـا

وعجلاتها القاسية. أنفاسه تقتلع من صدره اقتلاعاً. لن تعود ساقاه، بعد قليل، تقويان على احتماله والاندفاع به، جرياً. الأرض تشدهما إليها، وصدره شق ضيق جارح. لكن ذهنه هادىء، في بؤرة ثابتة من حرارة ساطعة، يعد عدته لصراع لا يعرف أين يحدث، ولا كيف يخرج منه، ولكنه يعرف أنه سيذهب إليه، طائعاً أو برغمه، ويخور قلبه عندما تطوف بذهنه نتائجه، لا يسلم أبداً بها، ولكنه يعرف أنها محتومة وضرورية، أياً كانت. ويعرف أنه، طائعاً أو برغمه، سيخوض غمرته.

العينان القاسيتان تنظران إليه، من عمق شفاف أجنبي عنه، ما زالتا معاديتين. ولا رد عنده.

كان مسنداً ظهره إلى الكرسي غير المريح، يرفع رأسه إلى الحائط القديم، وضلف الشبابيك السوداء. كان الحمام يدخل ويخرج، برشاقة بطيئة هادئة، من أقفاص الجريد التي تحيط بها أوراق اللبلاب، فوق جدار القهوة البلدي. وقد صفت الكراسي في مفرق الطرق على الأرض المفروشة بالرمل المبلول. وقدة الظهر قد خففتها الظلال المتراوحة على تعريشة العنب الممدودة، سقفاً أخضر مثقوباً في أرابيسك غير منتظم، فوق الشارع، على أعمدة خشبية رفيعة حائلة الاغبرار. وجاء الصبي بإبريق الشاي المعدني الصغير الأزرق المدور، لم يعد يرى مثل هذا الإبريق كثيراً. يذكره من طفولته. كان إبريقه هو، لا أحد آخر يشرب منه الشاي. شاي طازج جديد، وكوب سخن ثلثه ماء سخن، وملعقة صفيح غارقة فيه، وسكر في منفضة سجاير

زجاجية مضلعة. هذه قهوة نظيفة، معتنى بها، حسنة الإضاءة.

- أهلاً وسهلاً. شرفت المطرح يا فندي.

- أهلاً بك. الله يشرف مقدارك.

- نورت الغورية.

- منورة بيكم وبالجدعان.

- رايح القلعة إن شاء الله؟ خان الخليلي؟

- أبداً والله. مشاغل.

- ربنا يعين.

- سمعت الأخبار؟ ماذا حدث في الميدان؟

- هل حدث شيء في الميدان؟

- أنا أسألك ماذا حدث في الميدان؟

- ماذا تريد أن يحدث في الميدان؟

- الساعة عشرة الصبح؟

- ماذا يمكن أن نفعل؟ لا بد أن يمر الواحد من الميدان، في الصبح أو المساء.

كان الرجل يستمع إلى الحديث. وقف على الناحية القريبة، بينما هو يقلب الماء الساخن بسرعة، يديره في الكوب ليطهره - أليس هذا هو المفروض أن يفعل؟

وعندما ألقى بالماء بعيداً عنه إلى الأرض المفروشة بالرمل،

كـان الرجـل ينظر إليـه، دون ابتسام، عـارفـاً. وجهـه الـداكن مغلق، عيناه مدفونتان، ليس فيهما مكان للرحمة. عظامـه متينة، فيـما يلوح، تحت القميص الـرمـادي المفتـوح خـارج البنـطلون الأسـود المكـوي. فمـه المكتنـز، بشفتيـه السـوداوين تقـريبـاً، الشهوانيتين، كأنه على وشك الابتسام. لم يبتسم.

- هل حدث شيء؟

كأنما حياته نفسها تتوقف على رد من الرجل.

- أتفضل الشاي.

- آه. الشاي. الشاي هنا عظيم.

- أصيب أحد؟

- لماذا؟

- في الميدان.

- الإنسان دائماً مصاب.

- لا. لا. أبداً.

سقط نور الشمس، مخففاً، من بين أغصان التعـريشة، عـلى الوجه الداكن. هل هي ابتسامة؟ أم لعب الضـوء بعينيه؟ رشف من الشاي، ما زال ساخناً، وضع الكوب، عـلى رخامـة المائـدة المدورة، ببطء.

ولم يرفع بصره من الأرض.

على الرمل المبلول المسوى، واضحة، قاطعـة الوضـوح، آثار

أقدام أربعة، مفلطحة، غاصت في لدونة الرمل من ثقل كتلة الجسم العريض، تنتهي كل قدم بغرز عميقة في الأرض، مدببة الغور. المخالب المقوسة، على بعد خطوتين من عينيه.

وظلال الأوراق ترتعش بين استدارات الضوء الصغيرة المهتزة، جاءت أصوات خبط ودق معدني بعيد ـ دكان سباك، أو ميكانيكي سيارات، سروجي على الأرجح، لا بد أنه سروجي سيارات، السروجية لا تحتاج مهنتهم إلى خبط ودق، مبيض نحاس، نعم، أو صائغ، ربما، أو بياع البسبوسة تحت المئذنة العتيقة، أقام منصة حلواه اللينة الندية بالعسل السريعة العطب جنب أحجار الجامع السوداء الألفية. وارتفع زقاء ديك، طويل، في همود الظهر المبهم، ينادي الفجر. وتكرر صياح الديك في السكون، مرة أخرى، ومرة. لم يرد عليه نداء آخر. وحشة هذا النداء لا تطاق. كل شيء يغمره سلام. وصمت. القهوجي على النّصبة، في الداخل المعتم الرطيب، يغسل الأكواب ويضع الصواني الصفراء التي تقطر ماء بعضها فوق البعض لها قرقعة نحاسية مكتومة الصدى، مبتورة.

ـ حصل لنا الشرف.

ـ الله يشرف مقدارك.

ـ من الناحية؟

ـ أبداً والله. مررت من هنا مجرد مرور.

ـ قلت تأخذ شاي؟

- شاي عظيم.
- أهلاً وسهلاً.
- تقول حدث شيء؟
- أي شيء؟
- أبداً. مجرد سؤال.
- حصل خير.

كان يصعد إلى الحارة من سلالم ضيقة حجرية متهدمة، ملبدة بطبقة قديمة من التراب. وجر قدميه في بركة صغيرة موحلة من ماء غسيل تتشربه الأرض. ومر من تحت شرفة خشبية مائلة مهجورة، تكاد تسقط من بين أحجار مكومة في دور علوي مهدود. وعبر أمام بقال مظلم مدفون تنزل إليه سلمة إلى الداخل، وأمامه صندوق الكوكولا أحمر مقشر الطلاء. وصمتت النساء لحظة، وهو يمر، جالسات على العتبات المتربة يرضعن ويثرثرن بصوت عال مرتاح ممدود، في قمصان نوم مقورة الفتحة واسعة باهتة. ذراعان ناعمتان تلقيان بماء وراءه، من حلة كبيرة. وجه امرأة، كأنها طفلة، لكنه نسائي، معابث، غض، ساخر، مشعث الشعر تحت المدورة التي تنتهي بكريات صغيرة مهتزة ملونة. ولد يقعي في وسط الحارة، في طريق الذاهبين الآيبين، وقد رفع جلابيته النظيفة حتى وسطه، واستغرقه الجهد المستحوذ الذي تركز فيه كل جسمه، باستمتاع، ورفع إليه عينين مستطلعتين، غائبتين، وجهه محتقن بالدم والجهد المريح.

ودار حول الخرابة الغائرة الأرض، من وراء كوم تراب عال هبت عليه منه رائحة العطن والراز والصفيح الصدىء والأرض التي ينتقع فيها الماء على مهل. هذه بيوت قديمة. وراءه علب الطوب الملونة بألوانها الفاقعة، قد أخذت منذ الآن ترث وتتشقق شقوقاً رفيعة متعرجة سوداء.

أين يجده؟ كيف يمكن أن يجده؟ قال له أنه في كل مكان، في الميدان، في حواري الحلمية، في شوارع شبرا، تحت المتحف الزراعي، قال له في ساحات مصر الجديدة، وفي الصاغة، في أغوار الغورية، نعم جنب الجيزة، في جنينة الحيوانات، أيضاً، مقفلاً عليه داخل القفص وخارجه، أيضاً، قال له عند الساعة في سليمان باشا، وعند السفارات في العجوزة، والزمالك وفي الأزهر، قرب قرافة الإمام، وعلى العلو في العباسية، قال له في كل مكان. الناس لا يعرفون، خطوه بخطوهم، رجله على رجلهم، أنفاسه في صدورهم الشرسة ونبضه هو نبض قلوبهم المحطومة. لا تفهم؟ قال له أنه يدخل الشارع - كل شارع - بأقدام واثقة تعرف أنها تملك الشارع، كل شارع، قال له بأعين حنون قابضة، تحتضن الناس، ساقاه الأماميتان عليهما شعر ناعم وملبد تفوح منه رائحة الحيوان الوحشي الحريفة الزاعقة، شممتها، قال له، أنفاسه زخمة بخراء، ولكنك، تعرف، تحبها، وتنشقها وتجد فيها طعماً تريده، قال له تجد الأشلاء فيما بعد، مرمية على التراب، أو على الإسفلت، يرفعها عساكر المرور ويضعونها على الرصيف، كلقمة عيش، ويغطونها بورقتين

مفـروذتين من «الأهـرام»، أو «الأخبار»، قـال لـه النـاس تلقي بصفيحة ماء على الدم الذي يسود لونه سريعاً، أو يرشونه بقليل من الرمل أو التراب، وعجلات السيارات على أي حـال سرعان مـا تمحو كـل أثر، قـال له أن قـطعاً صغـيرة ملوثـة من مـلابس الأطفال، ممزقة، يطير بها الهواء أحياناً، ويلفهـا النـاس ويـرمونها عـلى جنب وتضيع، بـين قشرِ الـترمس واللب وورق كـراسـات التلاميذ الممزق، قال لـه ينسلّ من تحت البـوابات العتيقـة، بين دكاكين الأحذية، وشوالات العطارين التي تنفث رائحـة التوابـل والبهارات، يحتك أحياناً بـأكوام الـذرة المغلفة بخضرتهـا، وتهتز عربات الترمس والذرة المشوي من صدمة جسمه بهـا، على شط النيل، بين المتنزهين والجـالـسين عـلى العشب الناصـل، قال لـه النـاس لا تسرع ولا تجـري ولا شيء، قـال لـه صرير صـدره، وزحـيره، يتردد أحيـاناً، كـأنه من الـداخل، حيث لا يـوجد في الشارع إلا ضجيج المرور، كرير أجوف يتذبذب داخل إسطوانة القفص الصدري الوثيق، ويلتفتون فلا يرون شيئاً، هرير عميق به حشرجة طبيعية منتظمة، ثابتة الإيقاع، قـال له ضربـة واحدة تجعـل الرأس المبتـور، فاغـراً عينيه، صـامتـاً، يسقط بصـدمـة مكتـومة عـلى أرض الشارع، وتتحـاشاه السيـارات قليلاً وتنفث الحمير التي تجر عربات الكارو، في رعب مفاجًا، ثم تشتد الزحمة من جديد، وتنغلق الثغـرة في المرور، ولا يـدري أحد، ولا يهتم أحد حقاً ما إذا كانت القرقعة الخفيفـة الوزن، التـافهة في عـراء الشوارع وصخبها، جـاءت من العظام المتهشمـة، أو من قرقعـة

غازات العادم في السيارات، أو من خبط الأبواب التي تصطفق، قال له أحياناً يجد الأولاد على الرصيف، أسناناً منزوعة عليها تراب قليل، فينظفونها ويلعبون بها يا شمس يا شموسة، خذي سن الحمار وهاتي سن العروسة، يا شمس يا شموسة، خذي سن العريس وهاتي سن الجاموسة، قال له زمجرته أحياناً ترتفع في وسط النهار، توقف كل شيء، في دائرة ضيقة، لحظة من زمن، وتخرس كل شيء، ويتكرر الزئير المحتشد بالخوف والتهديد معاً، ولا ينظر الناس إلى بعضهم البعض، ينصتون لحظة، برغمهم كأنهم لا يصدقون، إلى الصوت المفزع المروّع معاً، ترتطم أصداؤه، في لحظة الصمت والإنكار، بين الجدران والنوافذ ولوحات الاعلانات، في قلب الميادين، أو في السكك المسدودة، وتسمع أحياناً أصوات الضلف والأبواب الحديدية أمام الدكاكين والواجهات تنزل بسرعة، وأبواب الشرفات تصطفق، ولكنه بعد ذلك يعود فيسير، بخطواته التي لا صوت لها، مركب بطيء رشيق ضخم الجرم على النيل، تتموج أشرعة جسمه، بقوة ومعرفة، وسط الناس الذين يعبرون اشارة المرور، لا ينظرون اليه، ولا يرونه أيضاً، يثب، في خفة، بين أنوار الاتوبيسات الحمراء المتربة، تنحرف له قليلاً، وتبطىء، لتتيح له أن يعابثها، مرحاً، شبعان، قال له خشخشة مخالبه تسمع أحياناً، في الليل، على أبواب الشقق النائمة، ويستيقظ رب البيت، فجأة على الصوت، ويظن أنه يحلم، ويرفع رأسه قليلاً من المخدة، ويحبس أنفاسه، ينصت ويترقب، قال له أنه

يعرف، انه يعرف. قال له صحيح.

في كـل خلجة منـه حس مهدد قـريب بهذا العناق الأخـير، عنـدما تـطبق عليه السيقـان الشعراء الملتفـة، في حنانها المصمم الخـام، قاسيـة تؤدي واجباً.لـذلـك قسـوتهـا ضروريـة، تمسكـه بمخـدات الاقدام النـاعمة المفلطحـة، مخالبهـا الحادة مغمـدة في جرابها، وتغمـره الرائحـة الحيوانيـة الزخمة التي لا فـرار منهـا، الرائحة الخصيبة الكثيفة كثافة جسم يتحلل وتنسكب إلى الخارج عصـاراتـه الـطازجـة في أول لحـظات الفسـاد الأخـير، ويلصق جسمه، في قبضة كاملة الاحاطـة، بعضلات الصـدر العريض، تـزحر فيـه أنفاس متضخمـة الايقاع، هـادئة، ويـرتفع الكـريـر الأجش يمـلأ العالم، وتسـطع الرائحـة الملبـدة الثقيلة تسـد كـل شيء، للمرة الأخيرة، في حضن يضغط تلك الضغـطة الرحيمـة المهشمة النهائية التي يظلم فيها كل شيء.

ومواكب الناس تمر به، في باب الحديد، كل إلى وجهتـه، في وحدتهم واندماجهم معاً، ماذا يفعلون؟ هذه الـوجوه التي لكـم، منحوتة، مضلعة، منبعجة ومضغوطة، عـرَّتها الـوحشة والقسـوة وجففتهـا، شققهـا العـرق وخطَّ فيهـا الألم والشبق أخـاديـد لا تمحي، هبت عليهـا وفتنتها أعـاصير الشهـوات والآمـال الآمـرة، وإنهاكـات التحقق والإحبـاط معـاً، كلهـا لا تفي بشيء وتـترك الجـوع متقداً لا ينـطفيء، عطشـانـة دائمـاً، ويـابسـة، ذابلة، متطاولة، مسحـوقة غضـة، متهدلـة، مشدودة في إينـاع الصبا،

فتوة النضج، إشراقة خاطفة تمتلىء بعدها باللحم المتلمظ وتغص بالتجشؤ العفن، هذه العيون الطاردة، والمختبئة، والمتربصة والمقتحمة، والجامدة، أرواح محبوسة في حفر قبورها، تتواثب وتخمش وتنبح وتزأر وتكركر بضحك الضباع، من غير صوت. وأرواح تنادي، بصوت مكتوم. تنويعات شائهة على أصل بسيط وجليل قائم عند أساس صخر الجسم الذي يتحات ويسقط عنه فتات الحجر، لتترك مسوخ النقوش المعراة، طبقة بعد طبقة. ماذا يفعلون؟ إلى أين يذهبون؟

الوحش الذي يسكن قاع قلبي ترتفع به مياه حب غير مفهوم وغير مطلوب، ثم تتهدم الأمواج. قال له إن المركب لا بد أن يسير. أين سفينتي؟ قال له إن الصيف جاء مبكراً هذا العام وإننا بالليل سنعود إلى بيوتنا، وننام. قال له ماذا تريد أن يحدث، كنا لا بد أن نمر من الميدان.

عندما عبر الشارع أمام سينما مترو، دخل الممر الضيق، بين الحيطان المرتفعة المعتمة. أوراق الشارع ونفاياته النظيفة الجافة قد كنست وجمعت في كومة صغيرة غير منتظمة، جنب الرصيف، على البلاط المغبر القديم. ومر بذهنه أنه لم ينزل قط، ولم يصعد قط، مثل هذه السلالم الحلزونية الحديدية التي تدور وتدور مرتفعة إلى ظلمة فوقية غامضة، إلى سطوح حادة لا منفذ فيها، في المغرب البرونزي الصدىء القاتم الخضرة. كانت قدماه، من التعب والغياب، تختطان به طريقاً غير مستقيم. واصطدمت كتفه بصناديق الخشب المبقورة الجوانب الموضوعة في

أكوام قلقة حرجة تهدد بالانهيار. وكانت الدكك الخشبية على الأبواب، فارغة لا يجلس عليها أحد، لامعة مصقولة مجوفة في وسطها قليلاً من طول جلسة أجيال متعاقبة من البوابين المنسيين.

كانت تجلس على الأرض، ترضع ابنها، صعيدية، سوداء، مجعدة وجافة، تنحني عليه بلا اهتمام، في حركة حنان لا يطاق، لا يبرر شيئاً ولا يبرره شيء، ثدي صغير داكن متهدل، مشقق بالغضون الذابلة، وطري مع ذلك يحمل عصارته، حقبة لحمية ملآنة مقددة الجلد ترتطم بعظم الصدر ويمصها الفم الشره دون هوادة، أنثى حيوانية هزيلة ولكن عينيها تلمعان لمعة غير حيوانية، من طول تعرية لشمس صراع لا راحة فيه، من جفاف انتزاع العطاء من بئر ضحلة، ويأس الاقتراب والابتعاد، بلا نهاية، من الإشباع الذي يعد وينكث وعده، وينسى ويعود، في تكرار فقد كل نضارة وكل جدة. يرتفع بجانبها قفص جريد انكشفت أضلاع الخوص الرفيعة فيه، متخاذلة ومصلوبة في رقتها، لا تتهاوى، مفروشة عليه بضع صحف يومية، وكتاب «الشعب» بعناوين كوفية وصورة مئذنة سامقة، اصفرت جلدته وتلوت أطرافها من الهواء السخن. وجهها الأسود المتهضم مضيء بصبر آخر، والولد على حجرها، مضغة تبدو لا أهمية لها، يتشبث، سمكة على حافة شط جاف به ماء قليل، يدفع بساقيه وقدميه.

أقول لك سيدتي، حبي، أمي. سخف هش مثير للضحك.

أقول لك إنني أعتذر، إنني آسف، وحزين. عبث. لست أقول لك شيئاً، ولا أستطيع. ما أرخص هذه الدموع التي لا تريد ـ مع ذلك ـ أن تنسكب. لست أعرفك، يا أمي، لا شأن لك بي، لا شيء يصل بيننا، كل دعوى أخرى باطلة. قال له الوحش سفينة تبحر بنا في مياه مجهولة. والعالم وحش، والألم. ولا هذا أيضاً. لا.

كان يمشي، في آخر نور السماء، في طريقه الخاوي الذي تحيط به الأشجار، لا ينتهي، موحشاً، ليس فيه شيء، على الرصيف وتحته برك جافة من الحبوب الصفراء الدقيقة التي تسقط من أشجار الكازورينا في الصيف، يهب بها هواء أول الليل فتطير وتحط على إسفلت الطريق. مصابيح الشارع مضيئة زرقاء في ضوء السماء الأخير، كرات زجاجية تشع بنور لا جدوى فيه، وهو يسير، نائماً مغمض العينين، في إرهاق كامل وصل به إلى حدود الحلم، في غيبة لا يوجد فيها إلا جسمه، وحش مهدود، يمضي دون إرادة، دون مخالب، دون عقبة، دون وصول، بلا انتهاء. يحس السيارات تمرق من على جانبيه، في حلمه، صامتة، أصواتها خافتة ومتمكنة في قوتها، يحس الناس على الرصيف غرباء، وأخوة يأمن لهم، ظلالاً قائمة في نور وعيه الداخلي الخافت، عاكفين على طريقهم، دون توقف، ودون إسراع.

نداء يهتف به:

ـ إدوار. . إدوار. .

الصوت في هدوء الشارع يأتيه في حلم فسيح معتم، الصوت نافورة تنبثق بين جدران كثيفة، يرتطم ماؤها بالحجر الصلب القديم، ويسقط.

أهو نداء باسمه في الليل؟ لا، ليس هو. اسمه غريب عنه، ما صلته به؟ والصوت غريب.

ودون أن يفتح عينيه، كان يبدو له أن البيت بعيد.

فهرست

		صفحة
تحت الجامع	٧ فبراير ١٩٦١	٥
آخر السكة	٧ مايو ١٩٦٧	٢٤
الأميرة والحصان	٥ مايو ١٩٦٧	٥١
جرح مفتوح	٣١ مارس ١٩٦٩	٧٣
البرج القديم	٧ سبتمبر ١٩٦٩	٩٢
في الشوارع	١١ سبتمبر ١٩٦٩	١٢٥

اللوحة للفنان عدلي رزق الله

«في اللحظة التالية كانا معاً، تحت الماء، في الترعة العكرةِ السُمرة، وقد انعقدت الظلال وبقع الفضة السائلة معاً، واندمجت، وتقلبت في اهتزاز الموج البطيء. والماء قابض وضحضاح، والأرض تميل تحت جسميهما، لا تكاد، لزجة، رملية، ويشبان معاً، ويخبطان بالأذرع، ولا رشاش هناك، يحتفظان بالوجه فوق الماء، يشهقان في طلب النَفَس، ثم ينقلبان في الماء معاً، دون غرق، يحتضن بين ذراعه الجسد المبتل الذي التصقت به الثياب وارتسمت كل تفاصيله تحتها، في شفافية محسوسة، تدفعه ليلتصق بكل استدارة فيها، ويطفوان معاً، في تموّج متماسك، متمددين يحملهما الماء دون جهد، ولا يخرجان فوق سطحه، والماء قد انحسر بجلبابها الطويل عن ساقيها المستديرتين اللامعتين من البلل، في لحمها، تحت يديه، بضاضة جديدة طازجة تومض في عتمة الماء

من قصة «البرج القديم»

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت